قرآن يبني لإنسانية ترقى

تدبُّر

سلسلة فقه القدوم على الله

قصة رحلة الخلود

الكتاب الرابع

الجنة: الملك الكبير بعد الوصول المثير

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية/ كلية الشريعة/ جامعة قطر

الطبعة الخامسة

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

بصائر المعرفة القرآنية

(٢٧)

السلسبيل المورود

قصة رحلة الخلود بين

الكتاب الرابع

الجنة

الملك الكبير

بعد الوصول المثير

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

السلسبيل المورود

قصة رحلة الخلود

الكتاب الرابع

الجنة الملك الكبير بعد الوصول المثير

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

مراجعة

القسم العلمي في مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

تصميم الكتاب

محمد عبدالحميد عبدالله الزبيدي

moh.ab.ad1071@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ويجوز نشر الكتاب بعد أخذ الإذن من المؤلف

رقم الإيداع القطري ٢٠٢٥/٢٧٤ - الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٧٨٣١٣

الطبعة الخامسة

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم
٤٢

مُقَدِّمَة

في الكتاب الثالث [على مشارف الجنة] من هذه السلسلة المباركة رافقنا حبيبنا الشاب المخبت القانت وهو يُزَفُّ مع المؤمنين الأخيار من عباد الله الأبرار إلى دار الكرامة (الجنة)، تمتلئ نفسه وحياته بالإنعام، وشهدنا مبلغ الحفاوة العظيمة التي تلقاها من الملائكة الكرام، ثم تابعناه وهو يسعى في مشيه وعبوره، تغمره الأفراح إلى ملكه الواسع وقصوره.

رأيناه هناك وقد وصل، وألقى النظرة الأولى عليها، فملأ بها عينه وبمنظرها اكتحل.

«فطوبى لمن كَانَ لَهُ من سوء الْحساب مجيرًا، لقد سعد سَعَادَة الْأَبَد وفاز فوزًا كَبِيرًا؛ ولأجل ذلك يحْمَدُ ربَّه ويشكره وَلم يزل بِالْحَمْد وَالشُّكْر جَدِيرًا، لقد سبق في الدنيا وَشهد أَلا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ شَهَادَةً شَرب بِها من سلسبيل الْجنَّة نميرًا، وَشَهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله فتلذَّذ بمحبته، وكيف لا وقد أرْسلهُ إِلَى الْخلق كلهم بشيرًا وَنَذِيرًا»[1].

وفي هذا الكتاب الرابع [الجنة.. المُلْك الكبير] وهو الأخير من هذه السلسلة سنتابع هذا المبارك، وهو يتلذَّذ بألوان النعيم، ويستمتع بصنوفٍ مدهشة من

(١) التذكرة في الوعظ ٩١ بتصرف.

المشتهيات والتكريم، وذلك في مشاهد عشرة ضمَّها هذا الكتاب:

- **المشهد الأول:** ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].
- **المشهد الثاني:** نزهة في رياض الجنان..
- **المشهد الثالث:** مع المرأة في الجنَّة: إلى أبهى جمال، وأحلى دلال..
- **المشهد الرابع:** أيُّها الصابرون: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].
- **المشهد الخامس:** كالجمال في الصورة.. إليك الجمال في الصوت.
- **المشهد السادس:** تنعَّم يا صاحب المتاب.. بلقاء أصدق الأصحاب.
- **المشهد السابع:** حاجة أهل النار إليك.. نعيمٌ عظيم.. وجاهُكَ عند الله نعيمٌ أعظم.
- **المشهد الثامن:** الأمان التام.. خلود لا موت ولا قلق ولا خِصام.
- **المشهد التاسع:** إليكم ختم الكرامة.. كبرى الجوائز هوتها القلوب منجذبة منقادة.. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.
- **المشهد العاشر:** فانظر إلى آثار رحمة الله: بين عبدٍ أَوْبَقَتْهُ أعمالُه.. ثم تداركته رحمة ربِّه وإفضالِه.
- ختام زفاف المؤمنين.. تجدُّد النِّعم ودوام الحمد للمنَّان المتين.

الجنة
الملك الكبير
بعد الوصول المثير

فللـه مـا في حشـوها مـن مسـرَّةٍ ... وأصنافِ لـذَّاتٍ بهـا يُتَنـعَّـمُ

ولله بـردُ العيـشِ بيـنَ خيـامِـها ... وروضاتِها والثَّغرُ في الروضِ يَبْسِمُ

بذيَّالـك الـوادي يهيـمُ صبـابةً ... مُحِبٌّ، يـرى أنَّ الصَّبابةَ مَـغْنَـمُ[1]

(١) حادي الأرواح (ص: ٧)

المشهد الأول

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: 20]

نظرةٌ عامةٌ عليهم وهم في ملكهم.. أظننت أنك تستطيع التعبير عما ترى؟

أَنْعَمَ صاحبُ القلبِ المنيبِ النَّظرَ في عيشه الذي اشتاق له العاشقون، وهام به المحبُّون، ورجاه المُتيَّمون، ونظر في مملكته، ثم نظر وكرَّر النظر، فكان أبلغ وصفٍ قول الله -عزَّ جاره-: ﴿وَلَا إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].. ملكًا كبيرًا..

◆ **أيا عاشق الجنة:** ملكُكَ الكبير في الجنة.. هل يبلغ كنهه ومداه إدراك؟!

هل يقدر الفكر أن ينصبَ لتصويره الشِّبَاك؟ ملك عظيم الشأن.. يعجز عن وصفه اللسان.. وتَصَوُّرُهُ ليس في الإمكان.. هو أكبر أعظم.. وأبهى أفخم..

◆ **يا صاحب القلب المنيب: إنها الجنة:**

رفيعةٌ قصورها.. حسانٌ حورها، واسعةٌ دورها، دائمٌ حبورها، وهي عاليةٌ.. تراها، فإذا هي عبارة عن «مائة درجة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض»[1].

(١) البخاري (٧٤٢٣)، مسلم (١٨٨٤).

◆ **يا مقيم الصلاة: إنها الجنة:**

ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات، والأوانس الناعمات...

وانظر إلى نفسك وأنت تُقَلِّبُ الطرف في الجنة: أتجد كلماتٍ يمكنها أن تعبِّرَ عنها حقَّ التعبير، أو تصفها حقَّ الوصف والتصوير، وحتى ترى مقدار عجزك عن تصوير ما في الجنة من نعيمٍ، ومقام كريم.. يكفي أن تردِّد قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، لا تستطيع أيُّ نفسٍ أن تتصور، أو تدرك ما أخفاه الله ﷻ لها من النعيم الذي تَقَرُّ به عينها، وتلذُّ به نفسها.

◆ **أي حبيباه:** أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاءٍ وتصورٍ وإدراك.. أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين، وأنت تنظر في الجنة فترى أن «قاب قوسٍ في الجنة خيرٌ ممَّا تطلع عليه الشمس وتغرب»[1]، قَدْر موضع القوس في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها مما طلعت عليه الشمس وغربت.. بأشجارها وأنهارها ونسائها وخيراتها وأموالها، فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين...؟!

◆ **أي أُنسَ النفس:** أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاء أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين.. وأنت تنظر فترى أن «موضعَ سَوْطِ أحدِكم من الجنة خيرٌ من الدنيا

(١) البخاري (٢٧٩٣).

وما عليها»[١]، فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين؟!

أي نبضَ الفؤاد: أنى لنفسٍ مهما أوتيت من ذكاءٍ وتصوُّرٍ وإدراكٍ.. أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين، وأنت ترى «أن ما يُقِلُّ الظُّفْرُ ممَّا في الجنة» لو أنه «بدا لَتَزَخْرَفَتْ له ما بين خَوَافِقِ السَّموات والأرض»، «ولو أن رجلًا من أهل الجنة اطَّلع فبدا أساوره لطمس ضوءَ الشَّمسِ كما تَطْمِسُ الشَّمسُ ضوءَ النجوم»[٢]، فأنى لنفسٍ أن تعلم بما أخفاه الله ﷻ لها من قرة أعين...؟!

◆ **ولا خيال... فأنت الآن تعاين حقيقة الحال**، وإن عجزت عن تصوير ذلك بالمقال.. اقرأ -أيا رفيق الروح- اقرأ الآن قول ربِّك ﷻ مخبتًا خاشعًا خاضعًا باكيًا:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة: ١٧]

اقرأها مرتِّلًا متلهِّفًا عازمًا على تقديم المهر داعيًا بإخباتٍ: اللهم إني أسألك الفردوس.. برحمتك.. برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) البخاري (٢٨٩٢).

(٢) أحمد (١٤٤٩)، الترمذي (٢٥٣٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ بِهَذَا الإِسْنَادِ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ»، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٩٦)، وقال: «ونقل المنذري في «الترغيب» عن الترمذي أنه قال: «حديث حسن غريب»، فزاد كلمة «حسن». وهذا هو اللائق بحال إسناده؛ فإن رجاله ثقات كلهم رجال مسلم؛ غير ابن لهيعة، وحديثه صحيح إذا كان من رواية أحد العبادلة، وهذا منه».

عن إِبْرَاهِيمَ الزُّهْرِيِّ ﷺ قَالَ جَلَسَ إِلَيَّ يَوْمًا زِيَادٌ -مَوْلَى ابْنِ عَيَّاشٍ ﷺ-، فَقَالَ لي:

يَا عَبْدَ اللهِ، قُلْتُ: مَا تَشَاءُ؟

قَالَ: مَا هِيَ إِلا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؟

قُلْتُ: لا وَاللهِ مَا هِيَ إِلا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ!

فَقَالَ: وَمَا بَيْنَهُمَا مَنْزِلٌ يَنْزِلُهُ الْعِبَادُ؟

فَقُلْتُ: مَا بَيْنَهُمَا مَنْزِلٌ يَنْزِلُهُ الْعِبَادُ.

قَالَ: فَوَاللهِ إِنَّ نَفْسِي لَنَفْسٌ أَضِنُّ بِهَا عَنِ النَّارِ، وَلَلصَّبْرُ الْيَوْمَ عن مَعَاصِي اللهِ خَيْرٌ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الأَغْلالِ[1].

◆ رأيتَ نعيمًا.. رأيت ملكًا كبيرًا:

ارمِ ببصرك حيث شئت من مملكتك، فإنك إذا ﴿رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠]، إذا رأيت ببصرك في أرجاء مملكتك أو في أرجاء الجنة، رأيت نعيمًا وملكًا عريضًا كبيرًا عظيمًا..

◆ الملائكة المكرمون يستأذنون عليك:

ومن عظمة وجلال الملك الكبير لأهل الجنة «تسليم الملائكة عليهم، واستئذانهم عليهم»[2].. نعم!.. نعم!.. ملائكة الله ﷻ المكرمون يستأذنون إن أرادوا

(١) الصبر والثواب لابن أبي الدنيا، ص: ٤٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢.

الدخول عليك أيها الفائز بأعظم ما يطمح له الطامحون، فأنت مَلِكٌ يخدمك الخَلْق العظماء المخلَّدون.. ولتدرك طَرَفًا من عَظمة ما يكون عليه ذاك الملك الكبير وأُبَّهَتُهُ وفخامتُه، اسمع لوصفٍ ذكره الراغبون الآملون:

يرسل الله -عز جاره- رسولًا من لدنه إلى ولي من أوليائه ممن بوَّأهم جنته فيأتيه رسول الله ﷺ بالتحفة واللطف فلا يصل إليه حتى يُستأذن له عليه، فيقول للحاجب: «استأذن على وليِّ الله ﷺ، فإني لست أَصِل إليه»، فيُعْلِم ذلك الحاجب حاجبًا آخر، وحاجبًا بعد حاجب ومن دار إلى دار[1]، إنها إدارة ضخمة كاملة لمكتبك الذي لا تعمل فيه إلا التنعم بأصناف النعيم.

فتصور يا حبيب الله أيدي الحُجَّاب وقد مدوا بها إلى حِلَقِ الياقوت المُفَصَّص بالدُّرِّ على صفائح الذهب الأحمر، فقرعوا حِلَقَ أبواب قصرك، فلما اصطكَّ حِلَقُ الياقوت بأبواب قصرك من الدُّرِّ والزُّمُرُّد طَنَّت الحِلَقِ على الأبواب بأحسن طنين تلذ به الأسماع وتسر به قلوب المستمعين.. ثم أشرقتَ من قُبَّتِك بجمال وجهك وإشراق نورك، فبادرتِ الحَجَبَةُ إليكَ بالقول مسرعة وهي مع ذلك غاضَّةٌ أبصارها تعظيمًا لك: «يا ولي الله، رسلُ الله إليك بالباب ومعهم التُّحَف من عند ربِّك»، فرجعت إليهم بالجواب: «أن ائذنوا لرسل مولاي»، ففَتحتِ الحَجَبَةُ عند إذنك لهم أبواب قصرك وأنت متكئ، فدخلوا على أريكتك والولدان قد صفُّوا بين يديك،

(١) البعث والنشور للبيهقي ١/ ٢٣٨ (٤٠٣)، وينظر: تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٤، حادي الأرواح، ص: ٢٧٤.

فأقبلت الملائكة بحسن صورهم والهدايا تلمع وتسطع نورًا في أيديهم، فدخلوا عليك من أبواب متفرقة لينجز لك ربُّك ﷻ ما وعدك من كلِّ باب، سلام عليك، فبادروا بالسلام عليكم بحسن نغماتهم من كلِّ أبوابك، ثم أتبعوا تسليمهم: «يا وليَّ الله، إن ربَّك يقول: عليك السلام وقد أرسل إليك بهذه الهدايا والتُّحَف».. فتصوَّرْ سرور قلبك بِتُحَف ربِّك ولطفه إيَّاك[1].

◆ **إنه المقام الطيب الأمين:** وتنقلتَ في أرجاء ملكك، ومكان إقامتك الجديدة، فوجدته حقًّا المكان الطيِّب الرخيَّ والمقام الأمين البهيِّ، وإنما يكون المقام طيبًا بأمرين:

* الأول: أن يكون الساكن فيه آمنًا من جميع ما يخافه ويحذر منه.. وهو هنا كذلك؛ إذ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٥١] هنا..

* والثاني: أن يكون فيه أسباب النزهة والسعة من الجنات والعيون، وأنتم أيها الفائزون هنا ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الدخان: ٥٢].

ويكفي أن تعلم سعة مملكتك إذا أُخبرت أن أدنى «أهل الجنة منزلةً لينظر في ملكه ألفي سنةٍ.. يرى أقصاه كما يرى أدناه.. ينظر في أزواجه وخدمه»[2] نعم! نعم! ها قد

---

(١) التوهم في وصف أحوال الآخرة، للحارث المحاسبي، ص: ٦٢، بتصرف.

(٢) أحمد (٤٦٢٣)، وقال في "مجمع الزوائد": ١٠/ ٤٠١: «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ، وَفِي أَسَانِيدِهِمْ ثُوَيْرُ بْنُ أَبِي فَاخِتَةَ، وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ».

اجتمع لك يا عبد الله الإقامة الهانئة الوادعة.. والأملاك الكبيرة الشاسعة الواسعة.. والنعم والآلاء المتنوعة المتتابعة.. فمتِّعْ نفسك وعينك يا ذا السعي المشكور: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].

إنها اختصارٌ لوصف الأشواق، وإجمالٌ لمن أراد السباق: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].

وهذه مجرد نِعَمٍ يمكن أن نتصورها وندركها؛ ووراءنا نِعَمٌ أخرى نعرفها هنالك يوم نتهيأ لإدراكها مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشرٍ!

عند ذاك لربما تذكرتَ لماذا نهى النبي ﷺ أن يُسأل بوجه الله إلا الجنة.. إن الله هو العظيم وهو الخالق.. ولا يسأل بوجهه إلا عظيمٌ من مخلوقاته وهو الجنة..

أنت بشرٌ! بدأت تحاول إحصاء ملكك وسعة مملكتك.. أتستطيع؟

وتساءلتَ باندهاشٍ وفضولٍ وتطلعٍ وطموحٍ: إذا كانت هذه مساحة مملكةٍ لواحدٍ من أهل الجنة فكم هي مساحة الجنة؟! كم سعتها؟!

والذكرى تأتيك بالجواب.. إذ تذكر دون ارتياب قول الله -جل وعز-﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، الآن ترى ذلك عيانًا، وتجد ما قال ربك حقًّا فإذا قَرَنْتَ السَّمَوَات والأرض وجَمَعْتَ بعضها إلى بعض ثم بسطتها كما تبسط الثياب، ووصلتَ بعضها ببعضٍ فكم سيبلغ مدى طولها يا ترى؟! لا يحتمل ذلك عقل

الإنسان، ولكن مهما بلغ مداها فذلك سيكون عرض الجنة.. هذا العرض فقط فكيف الطول حتى نعلم المساحة؟!

إذا كان ذلك العرض فإنه لا يستطاع وصف طولها؛ إذ لا يعلم طولها إلا الله[1] فكيف ستكون الجنة اتساعًا وانفساحًا؟!

(قوموا إلى [جنة عرضها السَّمَوَات والأرض]).. حداء نبوي لإلهاب النفوس:

اليقين بـ[جنة عرضها السَّمَوَات والأرض] صنعت في القوم ما صنعت.. فأرخصوا النفوس في اليوم العبوس.. وضحوا بكلِّ غال ونفيس.. وخاضوا غير هيابين حامية الوطيس.. وقدموا الأرواح لنيل الأرباح والفوز بدار الأفراح.. نادى رسول الله ﷺ في القوم يوم بدرٍ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه: **يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟!** قال: «**نعم**»، قال: **بخ بخ**، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: **لا والله يا رسول الله، إلا رَجاءة أن أكون من أهلها**، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: **لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة**، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل[2].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي٤/ ٢٠٤.

(٢) مسلم (١٩٠١).

وأنت تسمع هذا الكلام في تحديد عرضها فإنما يدلك ربك ﷻ على أوسع شيءٍ رأيت طرفًا منه، فالأمر أعظم إذن.. وعندها تمنيتَ الطيران لترى ما يظهر لك من سقف الجنة فأُعطيت ذلك، وما إن وصلتَ إلى مكانٍ يمكنك من رؤية سقفها نظرتَ فلم تستطع الإحاطة بكنهه اتساعًا، وعلوًّا، وجمالًا، وأُخبرتَ هناك أنه عرش الرحمن[1].

وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدر قدره، ويعلم طوله وعرضه ويدرك أمره إلا الله خالقه الذي لا نهاية لقدرته.. ولا غاية لسعة مملكته -جلَّ جلاله-[2].. ألا ما أشقى وأبأس من ليس له نصيب في هذا الملك الكبير الواسع!.. ألا ما أشأم وأتعس من ليس حظ من ذاكم النعيم الممتد الشاسع!.. ألا ما أبخس صفقة قوم اشتروا عاجلًا بآجل.. وقليلًا بكثير.. وفانيًا بباق!.. ألا مَنْ مناد فيهم قبل حلول الضيم والضير ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

مقعد الصدق..

والآن أيها الفائزون الموفقون: بعد أن تستقروا في نعيم الجنة، وتطمئنوا على أن الله ﷻ قد أحلَّ عليكم رضوانه، وبعد أن تشفعوا لأصحابكم ممَّن دخل النار، وبعد

(١) انظر: البخاري (١٠٢٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٥.

أن تطمئنوا بمقام الحق، ونعيم الصدق تسمعون هواتف الحق تنادي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[القمر: ٥٤، ٥٥] ولربما عادت الذكريات تنشال:

أهذا هو مقام الصدق؟!.. ما أشد ما أضنينا من أجله النفوس.. وأتعبنا في فكره الرؤوس!.. فإذا هو فوق ما تشوفنا.. وأعظم مما طلبنا.. لولا رحمةٌ من ربنا ﷻ لما كانت أعمالنا تساوي ذرةً مما به نتمتع..

◆ أتريد أن تعرف التفاوت بين المؤمنين في الدرجات؟ قم بجولةٍ لترى آفاق النعيم وعطاءات الملك الكريم:

لعل فضولك ولذتك لإدراك ما حواليك حَدَتْ بك إلى التعرف على تفاوت درجات المؤمنين في الجنة، وطاب لك أن تأخذ معلوماتٍ كافيةً عن درجات الجنة مع اطمئنانك بأن الذي أوتيته لم يؤته أحدٌ من العالمين، فلا غلَّ ولا حسد ولا تباغض، وهنا تحركتَ لتقوم بجولةٍ.. وأخذت تسبح في آفاق الجنان.. وتتنقل من أفنان لأفنان.. فرأيتَ.. وما أدرى القلب الولهان المشتاق للجنان بما سيرى؟ رأيتَ ما تنسكب عنده الدموع، رأيتَ وسمعتَ ما يثير القلب الولوع؛ فإنك ترى فقط درجاتٍ لصنف من أصناف المؤمنين، ويهولك الفارق العظيم بين هذه الدرجات: فـ«في الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين

السماء والأرض»[1]، فقط إن ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.. مجرد ما بين السماء والأرض.. أتراها مسافةً قصيرةً؟! مجرد تصوُّرِ هذه المسافة الشاسعة فوق مستوى الخيال البشري.. فمن أين لبشر أن يقف تحديدًا على قدر ما بين السماء والأرض وحده؟! فانظر وتأمل.. وأعلن للملأ من أهل النار خلفك: يا ليتكم كنتم تعقلون.. ليتكم كنتم توقنون.

فالآن الآن يا قوم ظهر الصباح، واستبان زيف المصباح.. فهل من مشتاقٍ يستعين بالدلجة والغدو والرواح؟

درجاتٌ رفيعةٌ، بعضها فوق بعض.. هل تطمح لها؟

ثم اتضحت لك أقسام الجنة فإذا هي منازل ودرجاتٌ عاليةٌ عظيمةٌ بعضها فوق بعضٍ، فأهل الغرف أعلى من سائر أهل الجنة، إذ طرق سمعك منادي الحق وهو يردد وعد الصدق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨﴾[العنكبوت: ٥٨]، وتأمَّلتَ في حالهم، فرأيتَ أن الله ﷻ قد بوَّأهم مُبَوَّأ صدق فأنزلهم غرفًا.. نعم، أصدق وصفٍ ﴿غُرَفٗا﴾، والغرفة هي العلية المشرفة، وغرفهم عالية مشرفة على أهل الجنة، فهي العلالي والمنازل المعتلية على غيرها ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠]، فهي طباق فوق طباق مبنياتٍ.. محكماتٍ..

---

(١) البخاري (٢٧٩٠).

مزخرفاتٍ.. عاليات.. ويكتمل المشهد الرائع بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

وترى علوها الباسق الذي لا يطيقه إدراكٌ بشري.. حتى «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»(١).

حَلُّوا بأرفعِ منزلٍ طَمَحَتْ له ... نفسٌ بأعلى الخلدِ والجنَّاتِ

غُرَفُ الجِنانِ وفوقها غُرَفٌ بَدَتْ ... للنَّاظرين بأرفعِ الدَّرجاتِ

مِنْ فوقها عرشُ الكريمِ يُظِلُّهُمْ ... بنَوالِهِ ومكارمٍ وهِباتِ(٢)

◆ **والغرف يا للغرف! أَبْشِرْ.. أَبْشِرْ؛ فإنها ليست خاصَّةً بالأنبياء..** بل رأيتَ هناك المجد والسناء قد لحق بقومٍ سكنوها، ومعشرٍ قطنوها.. يا طيبَ المسكن، وهم يعيشون فيها يا لذة العيش.. إنهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، لقد آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.. أَكْرِمْ وأَنْعِمْ.. إنها الأعمال الصالحات.. كم رفعت برحمة الله ﷻ أناسًا إلى أعلى الدرجات، وجعلتهم ينعمون بالغرف وهي أنعم الجنات؟.. اهتف راجيًا محسنًا الظن بالغفور الرؤوف الرحيم: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣].

---

(١) انظر: البخاري (٣٢٥٦).

(٢) الأبيات لسعيد بن دحباج -وفقه الله-.

◆ كرر مشهد التفاضل في الدرجات فيما بين أهل الجنات العاليات.. ثم اهتف بلسان الرجاء:

يا من امتدَّتْ لمسألته أكف السائلين..

يا من خرَّتْ لعبادته وجوه الساجدين..

يا من عَجَّتْ بالرغبة إليه أصوات المحتاجين..

يا من طَمَحَتْ لعظيم رحمته أعين الآملين..

إن كان صَغُرَ في جنب عطائك عملي.. فقد كبر في حسن رجائك أملي.. وأنت أرحم الراحمين.

ولربما سألتَ بعض سُكانها: أيُّ شيءٍ أوصلكم إلى هذه المرتبة العلية، والمكانة السامقة السنية؟

فأجابك والصفاء يملأ وجهه، والهناء يحيط نفسه.. أجابك بنفسٍ رضية مرضية:

لقد أطبتُ الكلام.. لقد أطعمتُ الطعام.. لقد أدمتُ الصيام..

أي خليلاه! لقد صليتُ لله بالليل والناس نيام[1]..

فيا حسرتاه من متكأ غَفْلَةٍ يحيا فيه غَفَلَةُ الأنام..!

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٩.

◆ والآن أيا حبيباه: أتبكي على التفريط في الأيام الخاليات؟

فَسِرْ في الطريقِ المستقيمِ إلى العُلا ••• على الصِّدقِ والإخلاصِ والبِرِّ والتُّقى

وإيَّاكَ والدُّنيا الغَرورَ فإنَّها ••• متاعٌ قليلٌ ما لها أبدًا بَقَا

وتُلهيك عن جنَّاتِ خلدٍ نعيمُها ••• يدومُ ويصفو حَبَّذا لك ملتقى[1]

◆ فئة المحبة الصادقة.. ارتقت مكانًا عليًّا يعجب الناظرين، ويدهش ساكني الجنان:

ورأيتَ هناك من الدرجات المتميزة التي كنتَ -أنت يا للشرف- في إحداها، رأيت غرفًا ضمت فئة الحب الحقيقي في الله بغير ادعاءٍ.. فما أكثر المدعين.. وهُيِّئَتْ لمن آخى في الله حقَّ الإخاء.. فيا ضيعة المنافقين..!

انظر إلى نفسك وإليهم: إنكم فئة المتحابين في الله.. لكم المنزل الكريم.. والجاه العظيم.. ارتقيتم مكانًا عليًّا بنفسٍ واثقة برحمة ربكم بكم، فإن «المتحابِّين تُرَى غُرَفُهُم في الجنَّة كالكوكب الطَّالع الشَّرقيِّ أو الغربيِّ»[2]، ويتساءل أهل الجنة وهم يرون هذه المنزلة الرفيعة تطل عليهم من أمكنتهم، يتساءلون: «فيقال: من هؤلاء؟»

(١) موارد الظمآن، عبد العزيز السلمان ٥/ ٥٥٠.

(٢) أحمد (١١٨٢)، أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٤٢٢، وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف؛ لانقطاعه، أبو حازم لم يسمع من أبي سعيد، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح».

كيف استحقوا هذه المرتبة العلية؟ ويأتي الجواب.. باقتضابٍ.. محبٍ لأولي المشاعر الصادقة التي يحوزها أولو الألباب: «فيقال: هؤلاء المتحابون في الله ﷻ» إنه الحب الصادق في الله ﷻ..

◆ **أيا خليلاه:** إنه الحب الذي كان لكم في الدنيا، هو «الحياة التي من حُرِمَها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فَقَدَه فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عَدِمَه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذَّة التي من لم يظفر بها فعيشه كلُّه همومٌ وآلام»[1].

سلامٌ على الإخوانِ في حَضْرةِ القُدْسِ ◆◆◆ ومَنْ مُحِيتْ آثارُهمْ في ضيا الشَّمسِ

سقى اللهُ أيَّامًا بهمْ قد تقاصَرَتْ ◆◆◆ ولياتِ وصلٍ بالمسرَّة والأنسِ

سترْتُ الهوى إلا عنِ القوم فارتقى ◆◆◆ فؤادي إلى غيبٍ عن العقل والحسِّ[2]

تقدم فهناك ما هو أعلى منه، وقابل هناك أعمدة الإسلام.. الراشدين الكرام:

ومن أعلى درجات الجنات مكانٌ تراءى لك ترائيًا، وعلمت أنه الذي يسمى بالفردوس وهو -يا للعظمة!- «أوسط الجنة وأعلى الجنة»، تراه هناك أو يتراءى لك،

(١) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٧.

(٢) ديوان عبد الغني النابلسي، (ص: ١٨٦٩).

و«فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[1]، وهناك نظرتَ إلى هذا التفاوت العظيم في درجات الجنة وحاولت إحصاءه فلم تستطع.. وكيف تستطيع وقد علمتَ أن «أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا يُرَى الْكَوْكَبُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ»[2]، وبدا لك أناسٌ من أهل عليين طالما شدك الشوق إليهم، طالما تمنيتَ رؤيتهم: منهم أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي ﷺ.. أوتاد الإسلام، وأركان الحق العظام، وخير من صلى وصام.. بعد الأنبياء الكرام عليهم السلام.. وغيرهم من الأفذاذ الذين تهفو لهم القلوب، وتراهم من وراء حجب الغيوب.. وعندما يبدو أحدهم، ويشرف على أهل الجنة يَحْدُث للجنة وهجٌ أخَّاذٌ.. فـ«إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَتُضِيءُ الْجَنَّةُ لِوَجْهِهِ، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ»[3].

يا حُسْن تلك الوجوه!.. لطالما كنتَ تناجي الواحد منهم عسى أن تصحبه، أو تراه.. ولو رؤيا منامٍ.. طالما رددتَ له منشدًا.. وناجيته مسعَدًا:

أحِنُّ إليكُمْ كلَّ يومٍ وليلةٍ ••• وأهذي بكُمْ في يقظتي ومَنامي

فلا تنكروا طِيبَ النَّسيمِ إذا سَرَى ••• إليكمْ فذاكَ الطِّيْبُ فيهِ سَلامي[4]

(١) البخاري (٢٧٩٠).

(٢) أحمد (١١٤٦٧)، وقال محققو المسند: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، وبقية رجاله ثقات».

(٣) أبو داود (٣٩٨٧)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٣٨٩٢).

(٤) الأبيات لبهاء الدين زهير. ينظر: ديوانه (ص: ٣٣).

هاهو الواحد منهم «مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَتُضِيءُ الْجَنَّةُ لِوَجْهِهِ، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ»[1]، أضاؤوا الأرض بنشر الحق في عامة الخلق، وإقامة القسط في أزمنة القحط.. فأضاؤوا الجنة بسناهم.. هذا مقامهم.. فكيف يكون مقام أعظمهم وأجلهم.. سيدنا محمد ذي المقام الأحمد، والمكان الرفيع الأسعد ﷺ؟!

ومنادي الحق ينادي:

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

وهناك رأيتَ أقوامًا من غير المجاهدين قد ارتقوا مرتقى عظيمًا، ورُفِع بعضهم إلى الفردوس، وهذا مثوى خاصَّة الخاصَّة، وبعضهم دنا منها، وعلمتَ أن ذلك كان بسبب اجتهادهم في الدعاء بالوصول إلى منتهى الأمل وغاية الرجاء، وقرع سمعك ما كان النبي ﷺ يقوله في الدنيا: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[2]..

فالآن الآن الْهَجْ لمولاك.. الآن الآن ارفع إليه نجواك.. وتَبَتَّلْ بين يديه بدعواك: اللهم الفردوس الأعلى.. والمرتبة الفضلى.. اللهم المقام الأسنى.. اللهم الزيادة والحسنى..

◆ **لا تحزنْ أيا صاحب القرآن! لا تحزن..** فإن مجرد كسب الجنة هو الفوز

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) البخاري (٢٧٩٠).

العظيم.. ولكن لا تقف عند ذلك بل أَلْهِبْ فؤاد العزم وسَلِ الله ﷻ الفردوس، وابْذُرْ لها بذور الطاعات لترقى بك إلى أعلى الغايات.. حيث الفردوس الأعلى، ولربما تنعمتَ بما تشتهيه من رحلةٍ لترى ذلك الجمال، وتسمع دوي تسبيح الملائكة عن قربٍ، فترى الجمال والجلال.. يا حبذا تلك الرحال.. أيها القلب استقم وقل متى إلى تلك الديار تشد الرحال.. اللهم اجعل ذاك حقيقة الحال لا مجرد خبرٍ عابرٍ يعتريه الزوال.

بالآيات ترتقي الدرجات:

أبشر يا صاحب القرآن وأنيس السور والآيات في الخلوات والليالي المظلمات.. أبشر بالعروج والترقي في الدرجات والمنازل العاليات، فإنه «يُقَالُ لصاحب القرآن: اقْرأ وارْقَ ورتلْ كما كنتَ تُرتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتَك عندَ آخِر آية تقرأها»[1].. وليس يتعاظم على مولاك أن يبلغك بحفظ كلامه إلى أرفع الدرجات وأعلاها، وأكرم النزل وأسناها.

◆ زيارةٌ خاصَّةٌ لأعظم الأحبة.. حبيبٌ طالما تمنيت رؤيته.. ولكنه من الأرفعين أعمالًا.. إنه من السابقين:

لربما لاحت في ذهنك صورة السابقين الأولين من الصحب الأخيار، من

(١) أحمد (٦٧٩٩)، قال شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

المهاجرين والأنصار.. وتذكرتَ أعلام الهدى من الرَّبْع المقدمين الأبرار، وما أكثر ما اشتقت إلى رؤيتهم منامًا في دنياك، وها أنت ذا في عالم الحقائق أفلا تزورهم وقد أمضَّ الشوقُ فؤادَك لرؤيتهم؟! فمن تريد أن تؤمَّ؟

أأبو بكرٍ الصديق ﷺ ناصر الإسلام، ومثبت دعائم الدين العظام في زمنٍ تداعت عليه الأهوال الجسام والأحداث الطوام، أم الفاروق ﷺ الصداح بالحق.. القائم بالصدق، الذي بسط الله به للأمة زهرتها، وأعلى به دينها، وصار بذلك على سائر الأمم فخرها.. أم عثمان وعليٌ والسابقون معهم ﷺ ممن ذاب القلب شوقًا إليهم، وناح الفؤاد رغبةً في اللحاق بهم من ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، يا حُسْن رفقتهم! ويا عز صحبتهم! ويا جمال أخوتهم!.. كم حداك الشوق وأمضَّك للقائهم، وكم هتفت في العالمين حاديًا:

أحبُّ محمَّدًا وأذوبُ وَجْدًا ... وكمْ لمحمَّدٍ في القلبِ عِشقُ
وحبُّ الصَّحبِ في الإسلامِ دينٌ ... وللصِّدِّيقِ دونَ القومِ سَبْقُ
وللفاروقِ أفضالٌ عِظَامٌ ... وذي النُّورين قَدْرٌ مُسْتَحَقُّ
وليثُ اللهِ في الهَيجَا علِيٌّ ... وكلُّهُمُ رجالُ اللهِ صُدْقُ[1]

(١) الأبيات لسعيد بن دحاج -وفقه الله-. ينظر ديوانه «عتب القوافي»، ص: ١٨.

لربما طَمَحَ بصرك في الذهاب إليهم.. ولن تستطيع وصْفَ ما اجتاحك من نعيمٍ عند اللقاء بهم، أو غمرك من سعادةٍ عند رؤيتهم ومحادثتهم.. ذاك هم فكيف بالحبيب المصطفى والشفيع المرتجى، والخليل المجتبى ﷺ، وإذا كانت الكلمات تعيا عن الحديث عن ذلك فقد انساق الوصف إلى ما رأيته في ممالكهم من نعيمٍ، وما أبصرته من فوزٍ عظيم.. إنهم السابقون.. السابقون ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١١].

◆ أعياك ما رأيت فلا تستطيع وصفه.. فكيف ستصنع؟

لقد أعياك ما رأيت من نعيمٍ، وما أبصرت من ملك عظيم، فاكتفيتَ بأن تعطينا صورةً سريعةً معترفًا بعجز الكلمات عن الإحاطة، وقصورها عن ذكر الأمر على سبيل الحقيقة.

◆ صورةٌ سريعةٌ.. كيف يمكن لسمعك وبصرك التقاطها، وهي كالضوء سرعة:

تراهم هناك متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة: ١٥] منسوجة بالذهب واللؤلؤ، مشبكة بالدر والياقوت ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: ١٦]، إنها وجوهٌ بعضها إلى بعضٍ ليس أحد وراء أحد، من حبِّهم ولهفتهم وشوقهم إلى أصحابهم، فهذا مع أصحابهم، فكيف يكون الأمر مع أهاليهم؟! يتكئون متقابلين في راحةٍ وخلو بالٍ من الهموم والأشغال، يتسامرون تَسَامُرَ اللذة والجمال.

وهم في اتكائهم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٧] على صفةٍ واحدةٍ لا يكبرون عنها.. ولا يشيبون.. ولا يتغيرون.. يطوفون عليهم لهم ولكم أيا ضيوفهم، يطوفون عليكم في مجلس المقربين ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٨] من أنواع الشراب، وعلى رأسه ألذ الرحيق.. إنه الخمر.. خمر من عينٍ جاريةٍ فإذا هي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩]، لا تصيبك بالصداع كخمر الدنيا، ولا تنزف العقل وتستنزفها بل هي ثابتةٌ مع الشدة المطربة، واللذة الرائعة، والنشوة الذائعة.

دَارٌ لَيْسَ فِيهَا مَا يَشِينُهَا، دَارٌ لا يَفْنَى مِنْهَا مَا يَزِينُهَا، دَارٌ لا يَزُولُ عِزُّهَا وَتَمْكِينُهَا، دَارٌ لا تَهْرَمُ فِيهَا عينها، لذة خمرهم تفوق ما كانوا يعرفون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].

دَارٌ أَشْرَقَتْ حَلاهَا، دَارٌ عَزَّتْ عُلاهَا، دَارٌ جلَّ من بناها، دار طاب للأبرار سُكْنَاهَا، دَارٌ تَبْلُغُ النُّفُوسُ فِيهَا مُنَاهَا، أَيْنَ خَاطِبُوهَا فَقَدْ وَصَفْنَاهَا؟ سُكَّانُهَا قَدْ أَمِنُوا مَا كَانُوا يَخَافُونَ يعرفون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].

مَا أَتَمَّ نَعِيمَهُمْ! مَا أَعَزَّ تَكْرِيمَهُمْ! مَا أَظْرَفَ حَدِيثَهُمْ وَقَدِيمَهُمْ! مَا أَصْوَنَ حَرِيمَهُمْ! مَا أَكْرَمَ كَرِيمَهُمْ! قَدْ مُنِحُوا الْخُلُودَ فَمَا يَبْرَحُونَ يعرفون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].[1]

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٤٩.

ثم دارت عليكم بعد ذلك جميل الثمار ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠]، وترى «الرجل إذا نزع ثمرةً من الجنة عادت مكانها الأخرى»(١)، ثم قُدِّمت المائدة بأطايب الطعام وألوانها مما لم يعهد، وكان من أبرز ذلك ما اشتهيتَ من لحم ضأنٍ، وقد تقول معها ما وصفه الله -عزَّ جاره- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢١]، وتعجَّبتَ منها فإن النبي ﷺ يصفها فيقول: «إنَّ طيرَ الجنَّةِ كأمثال البُخْتِ ترعى في شجر الجنة»، وقد أدهشك ما رأيتَ من نعومة هذه الطير حتى أن أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه لما سمع وصفها أعلن دهشته، وقال: يا رسول الله، إن هذه لطيرٌ ناعمةٌ! فأجابه النبيa بما يُبَشِّرُك ويسرك ويشوقك ويمتعك:

«فإن آكلَها أنعمُ منها.. فإن آكلها أنعم منها، فإن آكلها أنعم منها..
وأني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»(٢)

هكذا يُكَرِّرُ النبي ﷺ وصفه لمدى نعومة آكلها.

ثِمَارُهُمْ فِي أَشْجَارِهِمْ وَافِرَةٌ، وَفَوَاكِهُهُمْ مِنَ الْعُيُوبِ طَاهِرَةٌ، وَوُجُوهُهُمْ بِأَنْوَارِ

(١) الطبراني في الكبير (١٤٤٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٤: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَالْبَزَّارُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: عِيدَ فِي مَكَانِهَا مِثْلَاهَا، وَرِجَالُ الطَّبَرَانِيِّ وَأَحَدُ إِسْنَادَيِ الْبَزَّارِ ثِقَاتٌ»، وتعقبه الألباني في «الضعيفة» (٣١٤٦) فذكر أن هذا من أوهامه أو تساهله. والإسناد الآخر الذي أشار إليه فيه إسحاق بن إدريس، وهو كذاب يضع الحديث.

(٢) أحمد (١٣٣١١)، ورواه الضياء في المختارة (١٦١٤)، وصحح إسنادَه العراقيُّ في المغني عن حمل الأسفار، ص: ١٩٢٩، والبخت: إبلٌ طوال الأعناق.

الْقَبُولِ نَاضِرَةٌ، وَعُيُونُهُمْ إِلَى مَوْلاهُمْ نَاظِرَةٌ، وَقَدْ حَازُوا شَرَفَ الدُّنْيا وَفَوْزَ الآخِرَةِ، وَأَجَلُ النَّعِيمِ أنهم لا يتغيرون، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ [الواقعة: ٢٠].

كَانُوا فِي أَوْقَاتِ الأَسْحَارِ يَنْتَبِهُونَ، وَبِالأُسَارَى فِي الاعتذار يتشبهون، وقد تركوا النفاق فما يُمَوِّهُونَ، وَالْتَزَمُوا الصِّدْقَ فِيمَا بِهِ يَتَفَوَّهُونَ، وَإِذَا أَمُّوا فَضِيلَةً فَمَا يَنْتَهُونَ عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهُونَ؛ فَقَدْ فَازُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَانُوا يَطْلُبُونَ، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ [الواقعة: ٢٠][(١)].

وتابعتَ بعض هذه الطيور وهي ترفرف وتشد الأبصار بجمالها وتنوع ألوانها وطيرانها، فإذا هي تحط على نهر الكوثر.. النهر الذي تراه أمامك «أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل»، ولكن بصرك ينشد مع الطير فإذا «أعناقها كأعناق الجزر» الإبل العظام.. فيا لنعومتها!.. فكيف تكون نعومة من يأكل منها؟!

وكما أن قطوف الثمار دانية فكذلك هذه الطير التي تراها فتَودُّ من جمالها ونعومتها أن تأكلها فورًا.. مهلًا.. مهلًا.. لقد تمنيتَ أكلها فهاهي تجري لتقع بين يديك.. فكلوه هنيئًا مريئًا.. فـ«إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًا»[(٢)].. ماذا تنتظر.. كُلْ ولا تستغرب.. هذا النعيم لا كَبَدَ الدنيا ولا كدَّها.. هذا العيش لا غصص الفانية ونكدها.. ما مدى ما بَرَّح بك الشوق الآن إلى ذلك المكان؟!

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (١١٧١)، وضعفه ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار (٢٢٦١).

◆ ألا تريد رؤية أعلى درجات الجنة.. تقدم حيث الجلال النبوي، والمقام المحمود المصطفوي:

وتقدمت لترى أعلى درجة في الجنة، ولا يُدرى أتشاهد ذلك أم تُنْقَل إليك صُوَرُه، فإنها دون كلِّ وصف، تحيط بها الهالات من كلِّ مكان.

فلئن كانت الجنة مائة درجة، بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، ولئن كان أهل الجنة يتراءون أهل الغرف كالكوكب الدُّرِّيِّ الغابر في الأفق، ولئن كان أهل عليين والدرجات العلى يراهم مَنْ هو دونهم كالكوكب الغابر في الأفق، فكيف هي أعلى درجة في الجنة.. كيف ستكون؟! وكيف سُترى هالاتها؟!

إن المقام لا يمكن أن يوصف.. وإن أردتَ وصف ما ترى إن قُدِّرتْ لك رؤيته.. أعياك العجز.. وتذكرت حينها أن موسى عليه السلام لما رام أن يشهدها، وطلب من ربه تعالى أن يصف له منزلة أعلى أهل الجنة، قال الله ﷻ له:

> «أولئك الذين أردتُ.. غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها.. فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر..»[1].

فإن لقيتَ أحد أصحاب هذه المنزلة، فسألته عن هذه المنزلة حيث تذوب الأحداق، أو وُفِّقَتْ في السباق، وكنت ممن وفَّى بالميثاق، وظفر باللحاق بصفوة عباد

(١) مسلم (٣١٢).

الكريم الخلاق، فلا تدري أي شيءٍ هو الأنعم والأكرم فيها؟ أهو قول ربك -عز جاره- «أولئك الذين أردتُ» أردتُ.. كلمةٌ تهتز لها الأعين فتجري دموعها شوقًا.. وتسيل مآقيها تعظيمًا وحُبًّا.. أم في قوله -تعالت عظمته-: «غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها».. هذه هي مرتبة أعلاكم منزلة.. فكيف تكون مرتبة أعلى الأعلى منزلة؟!.. إن منادي الحق يقطع قول كلِّ قائل:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

ولربما سألت عن هذه الدرجة الرفيعة العالية.. فقيل لك: إنها الوسيلة درجة النبي ﷺ، ومرتبته التي لا يتطلع لها أحدٌ غيره ﷺ، إذ هي أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله ﷻ، ولأنها كذلك فقد كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نورًا، تستمد نورها من عرش الرحمن، الذي تستمد الجنات كلها نورها منه، فالأقرب إليه أعظم نورًا وبركة.. ولا غَرْوَ!.. ذاكم رسول الله ﷺ سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ.

وهنا تذكرتَ أنك كنت تسأل الله ﷺ أن يهبها له، وقمتَ تردد ما كنتَ عليه في الدنيا مما تردده خلف المؤذن، قمتَ تردد عسى أن تحظى بزيارة النبي المصطفى والسيد المجتبى والحبيب المرتجى ﷺ، ردَّدتَ حبًّا ولهفةً بلا شعور:

اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.. اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة..

نعم! الوسيلة.. إنها المنزلة العظيمة.. إنها «منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله»[1]، وقد رَجَتْ أمة النبي ﷺ أن يكون هو عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

أبشر! فقد شُرِّفت بالقرب من منزلته ﷺ.. أتدري ما السبب؟

أيها المخبت المنيب: لقد أُعلنتْ درجتك، وقُرِّر أن تكون منزلتك في محلةٍ قريبة من النبي ﷺ فكم ستبلغ هذه البشرى منك؟! وكيف ستأخذ بِلُبِّكَ؟! وتساءلتَ في نفسك: لم أكن أستحق هذا القرب، ولا أظنُّ عملي يبلغ هذه المنزلة الرفيعة العالية السامية فما الخبر...؟ كيف تداركتني رحمة ربي.. فمنحني الله ﷻ هذا التشريف السامي العظيم، فلعله فضله المنتظر؟ عندها سمعتَ من كانوا في منزلتك يتحادثون:

فقائلٌ يقول: نلتُ هذا الفضل العظيم قُربًا من النبي الكريم ﷺ بحسن الخلق، فقد قال ﷺ: «إن أقربكم مني منزلًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا في الدنيا»[2].

وآخر يقول: لقد بلغت هذا المنزل بكثرة صلاتي على المصطفى المختار.. شفيع الأبرار.. وهادي الناس بخير منار ﷺ.

وثالثٌ قال: إنما كان لي هذا المكان السامي بكفالتي للأيتام، وتفقدي لفقراء الأنام.. فها أنا من المكرمين فوق البرية بسلام.. فلله الحمد على جليل المقام.

وقائلٌ فاح الشذا من كلامه فقال: لو رأيتم بساطتي في حياتي الدنيا، وقيامي بالفرائض

---

(١) مسلم (٣٨٤).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/ ٣٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٥٧٣).

وشيءٍ من النوافل لا أزيد.. لزهدتم فيَّ أن أكون معكم في هذا المقام السامي، أو أقرب مجرد قربٍ من هذا المكان الرفيع.. غير أني لا أذكر لي شيئًا يبلغني ما بلغتُ.. إلا أني كنتُ أحب النبي ﷺ أشد الحب حتى لتمر عليَّ الساعات.. فأذكر كيف تَعِبَ وكابد، وأوذي وطُرِد، وقام حتى أقعده المرض.. كلُّ ذلك لِيُوصِل الدعوة لي ولأمثالي، أذكرُ ذلك فأبكي حبًّا له وشوقًا إليه، فوالله لقد باتَ النبي ﷺ أحبَّ إليَّ من نفسي، وهو أحب إليَّ من أهلي، وهو أحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكره فما أصبر أحيانًا -حتى أبكي، أشتاق إلى النظر إليه في أيام الصبر الداكنة، فتثور أحزاني الكامنة، وتغشاني الهموم الظاهرة والباطنة، ومَرَّ عليَّ وقتٌ خشيت إن دخلت الجنة ألَّا أراه، ولا تقرَّ عيني برؤية مُحَيَّاه.. نفسي له الفداء، ووجهي لوجهه الوقاء، فتجيش نفسي بكاءً عليه ﷺ، وعندما أتت ساعة الحقيقة في يومٍ شخصت فيه الأبصار نودي: المرء مع من أحب، فهتفتُ من كلِّ قلبي، كل شيءٍ أنكره من نفسي إلا حبي للنبي المحمود المحمد أحمد ﷺ فصار أمري إلى ما رأيتم..

يا فاتحَ الرُّسلِ أو يا خَتْمها شرفًا ... واللهُ قدَّس في الحالين معناهُ

لم أدخرْ غيرَ حُبٍّ فيك أرفعُه ... وسيلةً لكريمٍ يومَ ألقاهُ

صلَّى عليك إلهٌ أنت صفوتُه ... ما طُيِّبتْ بلذيذِ الذكر أفواهُ[1]

(١) ديوان ابن زمرك، ص: (٢٧٦).

◆ ومنادي الحق ينادي في جموع المحبين:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]

عندها عُدتَ -أيا خاطب الجنة- تُجيل فكرك مشتاقًا ملتاعًا، فمتى تُطْوى الكلمات لتصير حقيقة.. وهل في أعمالي الصالحات ما يبلغني إلى تلك المنازل على خير طريقة:

أتبلـغُ نفسـي في الجِنَـانِ مُناهـا ◆◆◆ سـقى اللهُ آتي عَهْدِهـا وسَـقاها

فهل أبتغي عـن عَهْدِها بـدلًا وهل ◆◆◆ تَمَلَّـكَ قلبـي المسـتهامَ سـواها

نـأتْ عن عُيُـوني دارَهـا فمتى متى ◆◆◆ أرى بعُيُـوني دارَهـا وأراهـا؟

المشهد الثاني

نزهة في رياض الجنان

ترى ما النعيم الأعلى: الجمال والإبداع الخارجي، أم السكينة الداخلية؟

وقد ألقيتَ نظرةً بل نظراتٍ على حدائق قصرك الغنَّاء، وتنقلت بين ظلال الأفياء، وتقلبت بين أرجاء وأرجاء، فوجدتها في غاية الحسن، وأفخم الزينة، وأبهى الجمال العُجاب الذي يأخذ الألباب، ويسلب العقول، فتصير من روعته في ذهول.. عندها تَذَكَّرْتَ أن الله الجليل قد زين للناس الحياة الدنيا، وبين هذه الحقيقة فقال -عزَّ جاره-:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ...﴾ [آل عمران : ١٤]

ولكنه ﷻ قد جعل زينة الدنيا لا تُذْكَرُ أمام زينة الجنة في الآخرة، واستمعت إلى منادي الحق ينادي

﴿ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [آل عمران: ١٥].

فقمتَ تتجول في هذه الجنات، فرأيتها تُجِنُّ من فيها فتستره بشجرها، وتضمه بنباتاتها، ورأيت الأنهار تجري من تحت الأشجار، تغرد من فوقها الأطيار، وتغدو عليك فيه للمتعة والتسلية حسناوات الأبكار، فكان مشهدًا يصوِّر لك بعضًا من النعيم المدرار الذي حباك به العزيز الغفار.

انظر المشهد بعين الوَلَه.. وسل من له الملك وحده لا شريك له.. وإذ رأيت الأطيار قد أَسَرَتْكَ بجمالها في الدنيا، فاذكر بدمعة الشوق منك مآلك في العقبى:

إذا هتفَ الحَمَامُ على غُصُونٍ ... جَرَتْ عَبَراتُ دمعي بانسكابِ[1]

فرجِّعْ الطرف في أملاكك الأثيرة، حيث الجنان الوفيرة والأنهار الغزيرة والجداول العليلة المثيرة، هناك ترى أهل الجنة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٥] نعم، تكون في روضةٍ وأهلك تحبرون فيها.. وأعجبتك الروضة فإن أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظٍ، ولا يقال لها روضة إلا إذا ازدانت بالثمار والظلال وجرت حولها العيون بالعذب الزلال، ولا شك أن الأقوال فيها تتقاصر فقمتَ تترنم[2]:

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشِبةٌ ... خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضَاحِكُ الشَّمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعَميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

(١) البيت لحارثة بن صخر شوقًا لابنه جَناب عندما أسلم وهاجر إلى المدينة. ينظر: المعمَّرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني، ص: ٧٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي١٤/ ١٣.

يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأُصُلُ[1]

فهذه رياضك، ولكن هذا الوصف مجرد تقريبٍ لواقع الحال فكيف تكون الحقائق؟! وهذه مجملات الأوصاف فكيف بالدقائق؟! لا يمكن أن يعبر عنها شيءٌ إلا ما يملأ عينيك.. فاملأ عينيك الآن.

وأنت تتحرك في مملكتك لترى ما أُعد لكم رأيت أخيرًا الجنات العظيمة ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾[مريم: ٦١] وهي سرة الجنة ووسطها، وسائر الجنات محدقةٌ بها، والواحد منكم يعطى جناتٍ لا جنة واحدة لسعتها، والجنات لا تكون جناتٍ دون أن ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥].

ومنادي الحق ينادي: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

مَنَحَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَيْسَ بِمَمْنُونٍ، وَأَمَّنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ حَوَادِثَ الْمَنُونِ، وَجَعَلَهُمْ عَلَى حِفْظِ سِرِّهِ يُؤْتَمَنُونَ؛ إِذْ كَانُوا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ يُؤْمِنُونَ، فَلَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فَوْقَ مَا يَشَاءُونَ، ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

خلقهم لعبادته وأرادهم، وأربحهم فِي مُعَامَلَتِهِ وَأَفَادَهُمْ، وَجَعَلَ الرِّضَا بِقَضَائِهِ زَادَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ مِنْ جَزِيلِ رِفْدِهِ وَزَادَهُمْ، وَأَثَابَهُمْ مَا لَمْ يَخْطِرْ عَلَى الظُّنُونِ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [الواقعة: ٢٤].

(١) الأبيات للأعشى. ينظر: ديوانه، ص: ٥٧ .

كَانُوا يَصْدُقُونَ فِي الأَقْوَالِ وَيُخْلِصُونَ فِي الأَعْمَالِ، ولا يرضون بم يكون مِنَ الْحَالِ، وَلا يَأْنَسُونَ بِمَا يَنْتَهِي إِلَى زَوَالٍ، فَجَزَاهُمْ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ذُو الْجَلالِ؛ إِذْ أَسْكَنَهُمْ فِي جَنَّتِهِ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ متكئون ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [الواقعة: ٢٤][1].

وراقك منظر الماء حيث الأنهار تجري من تحت أشجار الجنة وغرفها، وهذه هي الأنهار الصغيرة التي تتخلل جنانك في مملكتك الخاصة، ناهيك عن الأنهار الكبرى كنهر الكوثر وأنهار الماء والعسل واللبن والخمر، ثم أشرفت على أعظم أنهر الجنة (الكوثر) فإذا هو يتخلل جنانك.. تصور! ولا خيال فإنها جنة الخلد.. طينتها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر..

ومضيتَ في استمتاعك، ثم رفعت يديك خاشعًا تقول: اللهم إني أسألك من فضلك إنك أنت البر الرحيم.

تذكر يا محب الحجاز ما كنت تراه في الحجاز وقارن:

ونظرت في الأشجار فإذا هي تختلف من جنةٍ إلى جنةٍ، ومن مملكةٍ إلى مملكةٍ بحسب الأعمال، ودخلت جنةً من الجنان التي لبعض أصحابك فإذا هي مترفة مُتْرَعَةٌ بكل نعيم ودعة.. إذ وجدت نفسك وسط بستانٍ عظيمٍ تنمو نباتاته، وتغرد طيوره ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨]، مُوقَرٍ بالثمر، قد أثقل أصله من كثرته، وتراه لا شوك فيه، ولربما حانت منك هاهنا ابتسامة فرحٍ وغبطةٍ؛ إذ تتذكر سدر الدنيا فتذكر

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٥٠).

أنه كثير الشوك، قليل الثمر.. ضعيف الشجر.. تؤذي صاحبها.. أما هذه التي أمامك فإنك تلمسها بيدك فإذا هي سدرٌ مخضود، قد «خضد الله ﷻ شوكه فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرة.. فإنها لتنبت ثمرًا، فتفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعامٍ ما فيها لونٌ يشبه الآخر»(١).

ورأيت من الشجر هناك مما يشبه شجر الدنيا اسمًا ولا يشبهها رسمًا شجر الطلح، يصفه ربي -عزَّ جاره- فيقول: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة: ٢٩]، تأملت فيها فإذا هي شجرٌ عظامٌ كنتم ترونها بأرض الحجاز كثيرة الشوك، ولكنها الآن منضودة متراكمة الثمر مصفوفة ثمره أحلى من العسل.. فأخذت تتملاها، وربما أخذت تنشد:

يَا صَاحِ إِنْ جِئْتَ الحِجَازَ فَمِلْ بِنَا ... نحوَ الصَّفا فهوايَ أَجْمَعُهُ هنا

فَتِّشْ عبيرَ ثراهُ إن شئتَ الثَّرى ... فالدرُّ حيثُ بهِ نَثَرْنا عَتْبنا

وانْشُدْ بهِ قلبي فإنَّ مُقامَهُ ... حَيْثُ الْمَقَامُ بِهِ الْحَجُونُ إِلَى مِنَى(٢)

ولربما سألك صاحبٌ لك: لم تركز على هاتين الشجرتين؟ فكانت إجابتك المصحوبة بابتسامةٍ وردية: إنها تشبه شجر جزيرة العرب في زماننا في الدنيا.. لكن في الدنيا.. كان ما أكثر أذاها، وأقل جناها.. وهي هنا ما أعظمها جنى، وأجملها ندىً،

(١) انظر: الترغيب والترهيب ٤/ ٢٩٣ وقال: رواه ابن أبي الدنيا بإسنادٍ حسن.

(٢) الأبيات لابن معتوق، ينظر: ديوانه، ص: ١٢٤.

وأطيب ثمرها، وأكثر دُرَّها، وأجمل بِرَّها.. وهنا ربما رجعت بك الذكريات إلى يومٍ استنكر فيه أَعْرَابِيٌّ أن تكون هذه الشجرة المفاجئة في الجنة، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْمَعُكَ تَذْكُرُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، لَا أَعْلَمُ شَجَرَةً أَكْثَرَ شَوْكًا مِنْهَا - يَعْنِي: الطَّلْحَ - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ اللهَ يَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِنْهَا ثَمَرَةً مِثْلَ خُصْوَةِ التَّيْسِ الْمَلْبُودِ - يَعْنِي الْخُصَى - فِيهَا سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ، لَا يُشْبِهُ لَوْنٌ آخَرَ»(١)

ألا فهلمَّ إليها، وتلذذ باكتشاف مجانيها.

«عباد طاعوا الْمَعْبُودَ، وَأَوْصَلُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَسَأَلُوا مَنْ يَتَفَضَّلُ وَيَجُودُ، فَوَفَرَ نَصِيبُهُمْ مِنَ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨].

وَرَدُوا إِلَيْهِ أَكْرَمَ وُرُودٍ، وَأَمِنُوا فِي وِصَالِهِمْ عَائِقَ الصُّدُودِ، وَأَتْعَبُوا الأَعْضَاءَ فِي خِدْمَتِهِ وَالْجُلُودَ، فَمَنَحَهُمْ طِيبَ الْعَيْشِ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨].

تَصَافَوْا فَاصْطَفُّوا فِي خِدْمَتِهِ كَالْجُنُودِ، وَاسْتَلُّوا سُيُوفَ الْجِهَادِ مِنَ الْغُمُودِ، وَقَمَعُوا بِالصِّدْقِ الْعَدُوَّ الْكَنُودَ، وأرغموا بِسَبْقِهِمْ أَنْفَ الْحَسُودِ، فَخَصَّهُمْ مَوْلاهُمْ بِالْفَضْلِ وَالسُّعُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨].

---

(١) البعث لابن أبي داود (٧٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٤١): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ»، والخصوة: الخصية، والملبود: الذي قد اجتمع شعره بعض على بعض، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣٤)، وصحح إسناده محمد عمرو سليم في صفة الجنة، ص: ١٠٦.

طَلَبُوا بِالصِّدْقِ الصَّادِقَ الْوَدُودَ، وَسَعَوْا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَ إِنْجَازَ الْوُعُودِ، وَطَمِعُوا فِي كَرَمِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَيَعُودَ، وَأَسْبَلُوا دُمُوعَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ عَلَى الْخُدُودِ، فَيَا لَنَعِيمِهِمْ! وَأَطْيَبُ مِنْهُ الْخُلُودُ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨].

شَكَرُوا مَنْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ خَيْرٍ وَجُودٍ، وَعَلِمُوا أَنَّ الإخلاص هو المقصود، فاستعدوا وأوعدوا لليوم المشهود ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨].

تَمَكَّنُوا بِالْكِتَابِ الْقَدِيمِ، وَطَلَبُوا مِنَ الْمُنْعِمِ الْكَرِيمِ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِالْفَضْلِ وَالتَّكْرِيمِ، فَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ، فَهُمْ فِي الْجِنَانِ فِي أَحْلَى نَعِيمٍ، عِنْدَ مَلِكٍ كَبِيرٍ عَظِيمٍ، لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلا مولود، ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩].

أَعَدَّ لَهُمْ أَوْفَى الذَّخَائِرِ، وَهَذَّبَ مِنْهُمُ الْبَوَاطِنَ والظواهر، وَجَعَلَهُمْ بَيْنَ عِبَادِهِ كَالنُّجُومِ الزَّوَاهِرِ، وَبَنَى لَهُمُ الْغُرَفَ بِاللُّؤْلُؤِ وَالْجَوَاهِرِ، فَهُمْ فِي مَجْدٍ كَرِيمٍ وَسَعْدٍ غَيْرِ مَحْدُودٍ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩].

اسْتَزَارَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، وَخَصَّهُمْ بِكَرَامَتِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِرُؤْيَتِهِ وَجَعَلَهُمْ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ مِنْ رِعَايَتِهِ، فِي ظِلِّ نَعِيمٍ دَائِمٍ مَمْدُودٍ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩].

طَالَ مَا حَمَلُوا تَكْلِيفَهُ وَاسْتَقَلُّوا، وَسَعَوْا إِلَى مراضيه فما ضلوا، وتفيؤوا ظِلالَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَاسْتَظَلُّوا، وَرَضُوا بِقَضَائِهِ صَابِرِينَ فَمَا مَلُّوا، وَائْتَمَنَهُمْ عَلَى الإيمَانِ فَمَا

خَانُوا ولا غلوا، وكفوا أكفهم في غير ثِقَةً بِهِ وَغَلُّوا، فَعَزُّوا بِخِدْمَتِهِ إِذْ لِخِدْمَتِهِ ذَلُّوا، فَأَثَابَهُمْ نَعِيمًا لَيْسَ بِمَجْدُودٍ وَلا مَحْدُودٍ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩].

مَالُوا إِلَيْهِ وَتَرَكُوا الْمَالَ، وَعَلَّقُوا بِالطَّمَعِ فِي فَضْلِهِ الآمَالَ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الدُّنْيَا شُغُلًا بِالْمَآلِ، وَأَلِفُوا خِدْمَتَهُ وَهَجَرُوا الْمَلالَ، وَرَاضُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْفَقْرِ وَرَضُوا بِالإِقْلالِ، وَأَنِسُوا بِمُنَاجَاتِهِ وَنَسُوا الآلَ، فَإِذَا تَلَقَّاهُمْ مَوْلاهُمْ قَالَ مَرْحَبًا بِالْوُفُودِ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٨-٢٩].

اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ الأَبْرَارِ، وَأَسْكِنَّا مَعَهُمْ فِي دَارِ الْقَرَارِ، وَلا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمُخَالِفِينَ الفجار،وآتنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أَيَا مَنْ لَمْ يَزَلْ يُنْعِمُ وَيَجُودُ. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ»[1].

ثم تمتعتَ بالسير في تلك الحدائق الغنَّاء، فإذا بك تمشي بين شجرٍ عظيم الأفنان، جميل الأغصان، ذي ورقٍ ريان، وثمر منضود.. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠]، ورأيت هناك شجرةً مميزةً في ثمرها وهيئتها وظلها، إنها شجرة باسقةٌ عظيمةٌ.. نعم فـ «إن في الجنة شجرةً يسير الراكب الجوادَ المُضَمَّر السريع في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعها»[2].

والتفتَّ أخرى فرأيت شجرة أخرى، إنها شجرة طوبى، وهي «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٥٣.

(٢) البخاري (٦٥٥٢).

مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثيابُ أهلِ الجنَّةِ تَخْرُجُ من أكمامها»[١].. و«ما في الجنة شجرةٌ إلا وساقها من ذهب»[٢]..

وهناك رأيت من الأشجار البهية الأشكال.. العالية الطوال.. ما أخبر عنه النبي ﷺ.. اسمع إليه وهو يقص ذلك بتفصيل يشوق الأسماع..

فقد قام أعرابي إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الجنة فقال: فيها عنبٌ يا رسول الله؟

هل اشتهى صاحبنا العنب فقلق عليه.. ولذا سأل؟!

قال ﷺ: «نعم!».

قال: ما عظم العنقود منها؟

قال ﷺ: «مسيرة شهرٍ للغُراب الأَبْقع لَا يَنْثَنِي وَلَا يَفْتُرُ».

قال: ما عِظَمُ الحَبَّة منه؟ وحتى يبين النبي ﷺ حجم الحبة الواحدة ضرب له مثالًا..

فقال ﷺ: «هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَيْسًا مِنْ غَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟».

قال: نعم!

قال ﷺ: «فَسَلَخَ إِهَابَهُ، فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ، وَقَالَ: ادْبَغِي لَنَا هَذَا دَلْوًا نَرْوِي بِهِ مَاشِيَتَنَا؟».

قال: نعم.. ثم إن الأعرابي قال: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ تُشْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟

---

(١) أحمد (١١٦٧٣)، وصحح إسنادَه المناويُّ في التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/ ١٢٠.

(٢) الترمذي (٢٥٢٥)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

قال ﷺ: «نعم، وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ»[1]..

هذه مجرد حبة عنبٍ.. كيف ستكون الشجرة.. هذه هي الجنة.. وهذه بعض أشجارها.

جَنَّاتُ عَدْنٍ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ بِهَا ... فِي مَقْعَدِ الصِّدْقِ بَيْنَ الرَّوْضِ وَالزَّهَرِ

بِنَاؤُهَا فِضَّةٌ قَدْ زَانَهَا ذَهَبٌ ... وَطِينُهَا الْمِسْكُ وَالْحَصْبَا مِنَ الدُّرَرِ

أَوْرَاقُهَا ذَهَبٌ مِنْهَا الْغُصُونُ دَنَتْ ... بِكُلِّ نَوعٍ مِن الرَّيْحَانِ وَالثَّمَرِ

أَوْرَاقُهَا حُلَلٌ شَفَّافَةٌ خُلِقَتْ ... وَاللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ وَالْمُرْجَانُ فِي الشَّجَرِ[2]

مجلس أنس فردوسي في ظلال الأفنان:

وترى ابن عباس رضي الله عنه يحكي مشهدكم -أهلَ الجنة- وقد خرجتم من قصوركم وعالي غرفكم إلى ظلال الأشجار وأفنانها والنزهة بين خمائلها، فتتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضكم، ويذكر لَهْوَ الدنيا ومجالس أنسها، فيرسل الله ﷻ ريحًا من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكلِّ لَهْوٍ في الدنيا[3].. فلا تسل حينها عن تغريد الأطيار بألطف ألحان الأوتار..؟! ولا تسل عن سجع الحمام بأبدع الأصوات والأنغام..؟! ولا تسل عن صروف من اللعب المباح.. وجميل الضحك والمزاح.. وما يعقبه من الراح والمستراح..؟!

(١) أحمد (١٧٦٤٢)، ورواه ابن حبان (٧٤١٦)، وصححه الأرناؤوط لغيره.

(٢) الأبيات لابن مشرف. ينظر: ديوانه، ص: ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٧٨١)، وقال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٢٩١: «وهذا أثر غريب، وإسناده جيدٌ قويٌّ حسن».

مياه جارية في أخاديد وغير أخاديد:

وزَيَّنَ ذلك كلَّه ما ترى من ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١﴾ [الواقعة: ٣١] يجري في أخدود وربما في غير أخدود، ولكنه يتخلل الأشجار والقصور، ثم بدأت أنواع الفواكه تدور عليكم، فماذا ينقصكم من الابتهاج وأنتم.. أنتم في ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣٣]، والفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ تأتيكم من كلِّ جانب، وتناولتَ منها عنقودًا واحدًا حتى تعلم مقدار طعمها، وبركة حجمها، وعجبت من تجدُّدِه، وتكاثره مع لذيذ طعمه وجميل ذوقه، ولو أكل منه أهل الدنيا، لو أكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه[1].

ربما خَطَرَتْ ببالك الدنيا وتنغصها بانقطاع نعيمها، ونقص أقواتها، فاطمئن فإن هذه الفاكهة لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا، بل أكلُّها دائمٌ مستمرٌّ أبدًا مهما طلبتم وجدتم لا يمتنع عليكم بقدرة الله ﷻ شيءٌ، وكما يقول قتادة رحمه الله:

«لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعْدٌ»[2].

وهناك بينما أنت مع أهلك تارة، أو مع صحبك أخرى، بينما أنتم في ﴿ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢﴾ [المرسلات: ٤١، ٤٢] تسمعون منادي الحق ينادي زيادةً في النعيم

---

(١) أحمد (١٤٨٠٠)، والضياء في المختارة (١١٩٣)، وصححه لشواهده الشيخ مصطفى العدوي في تخريج أحاديث «المنتخب من مسند عبد بن حميد» (١٠٣٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٣٠.

والثناء: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المرسلات: ٤٣].

وتتردد في مسامعك أصداء النداء الرخيم الشجي:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤٤].

- **أيها المتقون:** أتحفناكم بكلِّ ذلك جزاءً لكم على الإحسان.. لقد نلتم ما تستحقونه على عبادة الملك الديان..
- **أيها المتقون:** لقد زدناكم من فضلنا مغفرةً وشرفناكم بالرضوان..
- **أيها المحسنون:** هذا الوعد الذي وعدناكم فـ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

فما العيشُ إلا ذاك لا عيشُ عَزَّةٍ ••• وسُعدى ولا ليلى ولا أُمَّ سالمِ

وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشا ••• ويُرجى لعبدٍ قارعِ الباب لازمِ[1]

وبعد: أيا خاطب الجنة: «أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ أَبَدًا فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ، وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ، فِي مَحِلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ»[2]، ألا هل من مشمرٍ إلى الجنة؟

---

(١) موارد الظمآن، السلمان ٥/ ٥٤٩.

(٢) ابن ماجه (٤٣٣٢)، ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، ص: ٤١، رقم (٢)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» ٤/ ٢٦٥: «هَذَا إِسْنَاد فِيهِ مقَال، الضَّحَّاك الْمعَافِرِي ذكره ابْن حبَان فِي الثِّقَات، وَقَالَ الذَّهَبِيّ فِي «طَبَقَات التَّهْذِيب»: مَجْهُول، وَسليمَان بن مُوسَى الْأَمَوِي مُخْتَلف فِيهِ، وَبَاقِي رجال الْإِسْنَاد ثِقَات».

أيها المتقون: انظروا إلى أنهار الجنة الكبرى.. هل رأيتم منظرًا أشهى وأحلى؟

وقمتَ لتنظر في أصول الأنهار الجارية في حدائق ملكك، فأنت ترى جنانك في مملكتك تشقها أنهار من ماء، وأنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل، أردت أن تنظر في أصولها، ومن أين تأتي، تتبعت ذلك لترى أنهار الجنة الكبرى التي تشق الجنة، وتتفرع عنها أنهار منها تجري من تحت غرفها وقصورها، وتتفرع منها كلُّ الأنهار الصغيرة التي تدخل في كلِّ مملكة من ممالك الواحد منكم.. فرأيت.. ماذا رأيت؟!

لقد رأيت أنهارًا ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: ١٥] غير متغير الرائحة.. تصوَّرْ أنهارًا من ماءٍ غير آسن.. أنهارًا وليست صحافًا أو أكوابًا، وانظر كيف تسير في انسياب، وينجذب لها المرء غاية الانجذاب، ولا تجد إلا اللذة والصفاء وأنت تتناولها فلا أذىً ولا قذىً.

ثم نظرتَ في جهة أخرى فإذا هي ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥]، فلم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة، ولا تعود النفس بعد شربه متأذيةً مريضة..

ونظرتَ بعدها فإذا هي ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، لم تعبث بها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم، طيبٌ مذاقها، لا يتكرهها الشاربون ولا يملونها، وهي أنهار وليست نهرًا واحدًا..

ونظرتَ أخيرًا: فإذا أنت ترى أنهارًا ﴿مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفًّىۖ﴾ [محمد: ١٥]، فالعسل ما يسيل

من لعاب النحل، ويحتاج إلى تصفيةٍ من الشمع والقذى، أما هنا في الجنة فقد خلقه الله كذلك نقيًا مصفىً.

◆ **إنها أبحرٌ لا أنهر.. تلتذون بها وفيها: هذا شربكم.. وذا منبع استمتاعكم.. ألا ترِدُون:**

وأنت في تأملك وانبهارك لحظت مقدار سعتها حتى لكأنها أبحر وليست أنهارًا، التفت لبعض صحبك، فقلت: انظروا: إنها لأبحرٌ من سعتها، وكثرة تدفقها.. إنها لأبحر!.. ويحق لنا أن نقول ما قاله النبي ﷺ:

> **«إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار -التي تجري في جنان كل واحدٍ منكم- بَعْدُ»**[1].

رَدَّ آخر: إنها لأبحر في عظمتها وسعتها، أنهر في عذوبتها وجريانها وتدفقها..

وتوافق قولكم على ذلك مسبحين حامدين..

وتأملتم في هذه الأنهار، فإذا هي «أفضل أشربة النوع الإنساني»[2].

فالماء لريِّكم واستمتاعكم وسباحتكم، وتلذذكم بطلب صيده أو اللعب مع موجه.. حيث الانتعاش والاستجمام والنزهة.. خذ من ذلك وقل: رب زدني من بركاتك وفضلك.

---

(١) الترمذي (٢٥٧١)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وصححه الألباني.

(٢) انظر: فيض القدير ٢/ ٤٦٦.

والعسل كان في الدنيا لشفائكم ونفعكم.. وهل ثَمَّ مرضٌ في الجنة حتى يكون شفاء؟ كلَّا.. إنما هي العافية الدائمة.. بل العسل لتلذُّذِكم، ولتفاخركم بنفاسته.. انظر هناك -أيها البار الأواب- كيف تنافس في تقديمه، والالتذاذ بأنواعه؟

وأما اللبن فللقوت والغذاء كان في الدنيا، وهو هنا للشرب والهناء..

وأما الخمر فللذة والسرور، والتمازح والحبور، فهديةٌ من الرب الغفور، لمن اجتنبها طاعة لمولاه في دنيا الغرور، فخذها يا قائمًا في الأسحار تناجي الإله الشكور.

أخيرًا وصلت إلى منبع الأنهار.. إنه فردوس جنة العزيز الغفار:

وحاولت تتبع أصول الأنهار التي تجري في الجنة تلذُّذًا بطلب المعرفة، واستمتاعًا بالتَّجوال، فعلمتَ وربما رأيتَ أنه أعلى درجات الجنة وأوسطها وأعدلها وهو الفردوس الذي ترى فوقه عرش الرحمن... هو منبع هذه الأنهار حيث تفجر منه أنهار الجنة، وهناك يسكن المشمرون لله من المصطفين الأخيار..

أَعْلَى مَنَازِلِهَا الْفِرْدَوْسُ عَالِيهَا ◆◆◆ عَرْشُ الإِلَهِ فَسَلْ وَاطْمَعْ وَلا تَذَرِ

أَنْهَارُهَا عَسَلٌ مَا فِيهِ شَائِبَةٌ ◆◆◆ وَخَالِصُ اللَّبَنِ الْجَارِي بِلا كَدَرِ

وَأَطْيَبُ الْخَمْرِ وَالْمَاءِ الَّذِي خَلِيَتْ ◆◆◆ مِنَ الصُّدَاعِ وَنُطْقِ اللَّهْوِ وَالسَّكَرِ

وَالْكُلُّ تَحْتَ جِبَالِ الْمِسْكِ مَنْبَعُهَا ◆◆◆ يُجْرُونَهُ كَيْفَ شَاؤوا غَيْرَ مُحْتَجَرِ[1]

(١) الأبيات لابن مشرف. ينظر: ديوانه (ص: ٣٤١).

◆ أيها الثابتون على الدين.. الزاهدون فيما يلعب به الناس من الناكصين: هذا هو الكوثر:

ولقد رأيتَ هناك شيئًا مما أعطى الله لنبيه ﷺ، فقد أعطى الله لنبيه ﷺ الكوثر وهو الخير الكثير، وكان من ذلك الخير الكثير نهر الكوثر، وتفقدته فإذا هو نهرٌ في الجنة[1]، عليه قصرٌ من لؤلؤٍ وزَبَرْجَد، وعليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزَّبَرْجَد، وعليه طيرٌ خضر «أعناقها كأعناق الجزر»، أنعم طير رأيت، فهي كالإبل العظام سمان مترفة.. حتى قال عمر رضي الله عنه: إن هذه لناعمةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أنعم منها»[2] يا لها من كلمةٍ مشوقة للنعيم.. المقيم.. أبشر فأنت من أكلتها وستكون أنعم منها..

وتعجبتَ من صفاء لونه وبياضه فإنه «أشد بياضًا من اللبن».. ويسقيك النبي ﷺ مباشرةً بيده، أو بواسطة أعوانه كوبًا.. فطعمتَ منه، فإذا هو «أحلى من العسل».

وحاولت أن تتلمس الكوثر فضربتَ بيدك فيه ثم شممتَه فإذا هو مسكٌ أَذْفَرُ -أي: طيب الرائحة-، وتأملت حافتيه فإذا هما من ذهب، وعلى حافتيه (جانبيه) آنية الذهب والفضة من الأباريق قد عُلِّقَتْ بطريقةٍ لا عهد لك بها في الجمال والرونق.. وأما أشكالها وهيئاتها وجمالها فـ «كأن الأباريق فيه النجوم»؛ لشدة وضاءتها وصفائها، وأما عددها فكعدد النجوم فحاول أن تحسبها إن رغبت..

---

(١) انظر: البخاري٤/ ١٩٠٠ (٤٩٦٤).

(٢) أحمد (١٣٣٠٦)، الترمذي (٢٥٤٢)، وقال: حديث حسنٌ، وصحح إسنادَه العراقيُّ في المغني عن حمل الأسفار، ص: ١٩٢٩، وقد ورد أن السائل أبو بكر، كما عند أحمد (١٣٣١١)، فيحمل على التعدد.

ونظرت ما بين طرفيه فلم تستطع الوصول إلى الطرف الآخر إلا بإعانةٍ من الله ﷻ، فـ «إن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة-القدس-»، أو «من عدن إلى عمَّان البلقاء..».. «وزواياه سواء».. فهو مربعٌ.. فاحسب مساحته التي تستغرق عدة دولٍ كبيرةٍ في عصرنا..

وعلى شاطئيه «قباب اللؤلؤ المجوَّف»، حيث رأيتَ دُرَرًا مجوَّفة كالقباب العظيمة، لا يخطر ببالك ما يوضع من استراحات على الشواطئ فلا مقارنة بين الحالين، هاهنا درٌّ من لؤلؤ مذهَّب، وليس مجرد بناءٍ من حجر أو خشب..

ثم نظرت في النهر فإذا هو يجري على رضراض[1] من الياقوت والزمرد، تصور هذا ومتع ناظريك في الجمال المتألق: حصاه الصغار عبارة عن الدر الثمين من الياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الفاخر، ثم نظرت إلى مائه فإذا هو أشد بياضًا من اللبن، أغراك جمال المنظر، وروعة صفاء الماء، وتلألؤ الدر والياقوت، أغراك ذلك كله لتشرب من هذا اللجين المتألق الصافي فطلبت الآنية فأتتك دون أن تبذل لها جهدًا، عندها أخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، وربما غَرفتْ لك بنفسها، فطعمته فكيف يمكن أن تصف الطعم باللغة القاصرة التي لا تماثل الحقيقة ولا تساويها، ولا تقرب منها أو تدانيها، تناولته فإذا طعمه أحلى من العسل، لا تستطيع وصفه بأكثر من ذلك، لأنه لا يوجد ما هو أكثر من ذلك في عالم الألفاظ الحبيسة،

(١) الرضراض: الحصى الصغار. انظر: النهاية ٢/ ٢٢٩.

ويا للفرق العظيم بين اللغة واللفظ وبين الحقيقة والمعنى، وبين الجنة وعبث الدنيا التعيسة! وازدان الطعم برائحةٍ أشد من رائحة من المسك[1].

عاطر الذكرى مع كوثر المصطفى:

لا تنس أن لك مع كوثر النبي ﷺ ذكرى عطرة تملأ عليك قلبك سعادة؛ إذ في مشهدٍ من مشاهد القيامة من قبل وقد أخذ منكم العطش مأخذه -معاشر المتقين- يسبق النبي ﷺ الجميع ليشرب من حوضه الأغر، ويملأ عينه مما أعطاه الله ﷻ إياه من الكوثر، وليستقبل جموع القادمين يلتمسون شرب الماء والزلال الرقراق، وذلك لما يرون عليه من صفاء وعذوبة، يذكر النبي ﷺ تقدمه فيقول: «إني فرطكم على الحوض [حتى أنظر من يَرِدُ عليَّ منكم]»[2].

وذلك أن الناس يشتد بهم العطش يوم القيامة فيطلبون ما يذهب الغلة ويشفي العلة، ولكلِّ نبيٍّ حوضٌ خاصٌّ به، فإن النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ الأنبياءَ يَتَبَاهون أيُّهم أكثرُ أصحابًا من أمَّتِه، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ يَوْمَئِذٍ أَكْثَرَهُمْ كُلِّهِمْ وَارِدَةً.. وإنَّ كلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ قَائِمٌ عَلَى حَوْضٍ مَلْآنَ، مَعَهُ عَصًا، يَدْعُو مَنْ عَرَفَ مِنْ أُمَّتِهِ»[3].

(١) انظر: الطبري ٣٠/ ٣٢١، والحديث في البخاري (٦٥٨١)، وانظر: فتح الباري ٧/ ٢١٤.

(٢) البخاري (٦٥٨٣)، والزيادة عند مسلم (٢٢٩٣).

(٣) الترمذي (٢٤٤٣)، وقال: حديث غريب، وصحح إرساله، والطبراني في الكبير (٧٠٥٣)، واللفظ له، وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٧/ ٢٦٤ طرق الحديث، وقال: «وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن صَحَّحهُ يحيى بن سعيد القَطَّان، وغيرُهم، وقد أفتى شيخُنا الحافظ المِزيُّ بِصِحَّةِ هذا الحديث، بهذه الطُّرق».

◆ **ثم ينادي منادٍ عليكم:** لتردوا حوض النبي ﷺ، فوردتموه فكنتم فيه فريقين:

فريقٌ استقبلهم النبي ﷺ فيا حفاوة ذاك الاستقبال! ويالجمال الوصال بمن حاز الكمال والجمال والجلال!.. ثم جاءتهم الأواني ساعيةً ليغترفوا منها شربةً لا يظمؤون بعدها أبدًا، والنبي ﷺ يبشِّر بذلك قائلًا:

«مَنْ مرَّ عليَّ شرب.. ومن شرب لم يظمأ أبدًا»(١).

ثم ليغترفوا ما شاؤوا للالتذاذ لا للظمأ..

كان أوَّلَكم ورودًا وشربًا.. كالعادة أصحابُ السبق العظيم إلى القربات والمسارعة الكبيرة إلى الخيرات، الأوائل إلى طاعة رب الأرض والسَّمَوَات: «فقراء المهاجرين: الشُّعْثُ رؤوسًا، الدُّنْسُ ثيابًا، الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ، وَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ، الذين يُعْطُون الحقَّ الذي عليهم، ولا يُعْطَون الحقَّ الذي لهم»(٢).

◆ لا تذهل عن الحقائق.. إنهم فريق الخير في هذه الحياة:

إنهم الشُّعْثُ رؤوسًا.. الدُّنْسُ ثيابًا، لا لأنهم لم يضربوا في الأرض يبتغون من فضل الله ﷻ، فهم قد بذلوا الأسباب لتحصيل أرزاقهم، غير أنهم كانوا يقنعون بالقليل مع قدرتهم على التوسع والاستمتاع بالكثير.. رضوا به، واطمأنوا إلى العمل

(١) البخاري (٦٥٨٣).

(٢) الترمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣)، وحسَّن إسنادَه الإشبيلي في الأحكام الكبرى ٣/ ٣١٥.

بالآخرة.. فلم يُلههم الكثير عن العمل للآخرة مع أنه كان في أيديهم، إنهم الذين فقهوا قول ربهم ﷻ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧]، هدفهم وهمُّهم فيما يجمعونه تحصيل ما يقيمهم في الدنيا، ثم الانشغال بما يرفعهم في العقبى..

إنهم الذين لا ينكحون المُنَعَّمات، ولا تفتح لهم السُّدَد، لا لأنهم يعافون ذلك، أو يتظاهرون بالزهد المزعوم، ولكنهم بذلوا الأسباب لتحصيل رزقهم، وتمكين مكانتهم عند الناس، بيد أنهم آثروا ذوات الدِّين على ذوات اللهو المهين.

إنهم الذين ملكوا الدنيا فجعلوها في أيديهم، ولم تدخل قلوبهم، ولم تملك نفوسهم، فهان عليهم أن ينفقوها مسارعةً إلى الله ﷻ والدار الآخرة، يسبقهم النبي ﷺ الذي لو شاء لسارت له الجبال ذهبًا وفضة، ولكنه آثر الآخرة، فكانت لا توقد في بيته نار ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين، فإذا ما ضاق حالهم يومًا، وقد بذلوا ما معهم ابتغاء رضوان الله ﷻ لم يتسخَّطوا، ولا جزعوا، ولا ندموا أن قدموا لأنفسهم شيئًا ينفعهم في غدٍ الحق، بل نادوا في ظلمات الضيق الذي ألمَّ بهم.. وصاحوا في أجواء الكرب الذي نزل عليهم: **رب أسألك نفسًا مطمئنة توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك، وتخشاك حقَّ خشيتك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله ونعم الوكيل..**

◆ **هتفوا في الليالي الكالحات:** ربِ قنِّعْني بما آتيتني، ولا تفتني بما حرمتني.. رب آوني وأيِّدْني بنصرك، وارزقني من الطيبات، واجعلني من الشاكرين..

◆ **يا صاحب القلب المنيب** في فريق المكرمين بالشرب من الحوض المورود.. أيها الرفيع الأمجد.. كان نصيبك الأسعد قد أقدمك المقدم الأحمد.. فكنت من هذا الفريق الممجَّد.. فلندع مشاعر الذكرى السعيدة تغمرك.. ولننتقل إلى الفريق الآخر..

رؤوف رحيم يقول لمن بدَّل وغيَّر: سحقًا.. سحقًا.. فلماذا؟

فبينما أنتم كذلك إذ رأيتم فريقًا من المصلين قد وردوا الحوض يريدون الاغتراف.. والنهل من نهر الألطاف، فردتهم الخَدَمَةُ من حوالي النهر، وبالغت في طردهم عنه والزجر واختلجتهم بعيدًا عنه، فذهبوا بعيدًا، ومُنعوا شربًا يروي منهم عطشًا مزيدًا.. فاختلج كلٌّ منهم مطرودًا، ونُحِّي عنه مردودًا والنبي ﷺ ينازع الخَدَمَة عليهم ويحاول إعادتهم من شفقته ورفقه ﷺ، ولكنه يُغْلَبُ عليهم آخر الأمر، فيظهر حزنه عليهم، وألمه لما حلَّ بهم، ويدافع عنهم بما عرفه منهم.. فيأتيه النداء.. من رب الأرض والسماء: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

◆ اهتف معي صادقًا: **اللهم إني أسألك العافية، اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك.**

وإن للمصطفى حوضًا مسافتُهُ ... ما بين صَنْعا وبُصْرى هكذا ذُكِرا

أحلى مِنَ العسلِ الصَّافي مذاقَتُهُ ... وأنَّ كِيْزَانَهُ مثلُ النُّجومِ تُرَى

ولـم يَـرِدْهُ سـوى أتبـاعِ سُـنَّتِهِ ... سـيماهم أنْ يُرَى التحجيل والغُرَرَا

وكـم يُنَحَّـى ويُنْفَـى كلُّ مبتـدِعٍ ... عن ورده ورجالٌ أحدثـوا الغِيَرَا[1]

وبعـد: وفي لحظـاتٍ يظهـر اغتباطكـم بمـا أعطاكـم الله ﷻ في الدنيـا علـى الدِّيـن مـن ثَبـات.. تحمـدون لأجلهـا رب الأرض والسَّـمَوَات.. لربمـا وصـف النبـي ﷺ لكـم هـذا المشـهد المفـرح لكـم.. المخـزي لغيركـم ممـن رُدُّوا علـى أعقابهـم فانقلبـوا خاسـرين.. يصـف النبـي ﷺ ذلـك فيقـول:

«لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي، [أعرفهم ويعرفونني]، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرُفِعُوا إِلَيَّ [أهويت لأناولهم] اخْتُلِجُوا دُونِي، [ولأنازعن أقوامًا، ثم لأغلبن عليهم]، [ثم يحال بيني وبينهم]، فلأقولن: أي رب أُصَيْحَابِي أُصَيْحَابِي! [فأقول إنَّهم مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي].. **ثم يقول** ﷺ: فيم هذا؟ فَلَيُقَالَنَّ لِي: [هل شَعَرْتَ ما عَمِلوا بَعْدَكَ، وَاللهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ].. إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، [إِنَّهم ارْتَدُّوا على أدبارِهم القَهْقَرَى].. [فأقول سُحْقًا سُحْقًا لمن غَيَّرَ بَعْدي].. [فإيايَّ! لا يَأْتِيَنَّ أحدُكم فيُذَبُّ عنِّي كما يُذَبُّ البعيرُ الضَّالُّ]»[2].

(١) الأبيات لابن مشرف. ينظر: ديوانه، ص: ٣٧.

(٢) البخاري (٦٥٩٣)، مسلم (٢٣٠٤)، والزيادات عندهما في مواضع متفرقة.

سُحْقًا سُحْقًا.. يا لها من كلمة خرجت من فم رؤوف رحيم.. هي سياط العذاب الأليم على من غَيَّرَ وبَدَّل وارتضع من هواه فجره إلى الجحيم.. عندها يكون النبي ﷺ هو الذي يذودهم عن الحوض.. يُخبر ﷺ عن ذلك فيقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الْإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ»(١).

فردد الآن -أيا حبيباه- مع ابن أبي مليكة رحمه الله خاشعًا منيبًا:

اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا.. آمين.

انظر هناك: هل لك في العيون الفياضة المزدهرة، والنوافير المرتفعة المتفجرة ؟

◆ **أيا حبيب الجنة:** انفتحت عيناك وأنت ترى هناك ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦]، انظر إليها وتأمل كيف تشرب منها، وتروى منها.. وتأمل جريانها، بل تأمل نوافيرها وهي تنبع نبعًا، وتفجر تفجيرًا، فيترقرق ماؤها عذبا نميرًا، وتشرق حسنًا لا تجد له نظيرًا.. وتمتع بعلو نوافيرها فإذا هي ترتفع علوًّا عظيمًا بتفاوتٍ في خطوطها ليتم الجمال والاستمتاع.. فتقر لمرآها العيون وتهفو الطباع، وتطرب لصوت خريرها الأسماع..

◆ **كيف السبيل إلى السلسبيل ومزاج الزنجبيل؟!**

وللزنجبيل عينٌ تسيله يشرب بها المقربون صرفًا.. وتمزج لسائر أهل الجنة طعمًا وعَرفًا..

(١) البخاري (٢٣٦٧).

واذكر هناك ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٨]، إنه شراب السلسبيل.. اسمها يدل على عظيم طيب طعمها، ولذيذ رائحتها، واسمها بذاته يدل على أنه سهل المرور في الحلق لعذوبته وصفائه، وتعجب من هذه العين إذ تراها تسيل عليكم في الطرق، وفي منازلكم، وهي تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة، ثم تسير جداول ينقاد ماؤها حيث شئت.

وترى نفسك تمشي في بيوتاتك، وتصعد إلى قصورك وربما كان بيدك قضيبٌ تشير به إلى الماء، فيجري معك حيثما دُرْتَ في منازلك على مستوى الأرض في غير أخدودٍ، ويتبعك حيثما صعدت إلى أعلى قصورك.. يا لجمالها!.. ويا للتمتع شُربًا ورِيًّا ونظرًا وتلذذًا![1].

◆ **وتميزت لك عيون الجنة الخاصة بأربابها:** فالتسنيم مثلًا للمقربين خاصَّة، ومثلها الكافور، ويمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، ويمزج لسائر أهل الجنة من شراب الأبرار[2].

◆ **أيها الأبرار.. أيها المقربون:** هذه العيون من حواليكم تتفجر فتناولوا منها ما شئتم نعيمًا كبيرًا، ولا تخافوا النقص فإنها وافرةٌ وفرةً عظيمةً.. ألا ترونها تتفجر من حولكم تفجيرًا؟!

(١) تفسير القرطبي١٩/ ١٢٥، وهذا جمعٌ بين تفسير مجاهدٍ وغيره.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٧.

◆ **أيها الأبرار.. أيها المقربون:** كما أوفيتم بنذركم وفرضكم من صلاةٍ خاشعةٍ، وزكاة ذائعةٍ، وصوم أيامٍ متتابعة، وحجٍّ وعمرةٍ جامعة، وعيشةٍ طائعة.. أوفينا لكم بعَينٍ طالعة، ومَنَنَّا عليكم بمحبةٍ ورحمةٍ واسعة.

◆ **ونظرت إلى نفسك:** تتنعم بالعيون، ويجري حواليك الماء الهتون.. شربًا واستمتاعًا.. فيا للشجون! أجل!.. وأَذَّن المجد هناك.. ورددت أذانه أصداء الفخار:

هؤلاء هم الأبرار فليتمتعوا، فإنهم كانوا

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾ [الإنسان: ٧]..

كانوا يقولون:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ [الإنسان: ٩]

فقيل لهم:

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢ ﴾ [الإنسان: ٢٢].

المشهد الثالث

إلى أبهى جمال وأحلى دلال

غُنْجٌ أخَّاذٌ، وقَدٌّ أهيفُ.. الحور ينتظرنك:

هناك في القصور العالية، والفرش الرخية، والحجال[1] البهية تنتظرك الحور العين.. خذ من حِسانك ما تشاء وتمتع ما طاب لك بحسناء غيداء.. قد ملأت عينك جمالًا وقلبك رواءً.. إنك تعرف زوجك فور دخولك الجنة.. إذ يهديك الله بإيمانك إلى مكان ملكك الكبير، وزوجك وفراشك الوثير..

إنهن كما وصف ربي -عزَّ جاره- ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه.

وفي مضجع الحب والود واللعب، والتفكه مع زوجك الوفية، لربما تذكرت صورتها وهي في الدنيا وكيف قد أخذت فيها الأيام، ولربما عملت في جسمها الآلام والأسقام، فإذا هي الآن قد أعيد تركيبها وبناؤها وخلقها كالغصن الأُملود.. وكل مفقود من حسنها موجود.. كأني بك تقول بصوت ممدود: يا لسحر ذاك القد بين

(١) الحجال: هي الأرائك والسرر.

القدود..! ويا لفتنة الفرع والصدر منها والنهود..! أعادها الله ﷻ في أبهى شبابها، وأروع جمالها ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]، بِكرًا كأن لم يطمثها من قبل إنس ولا جان.. سبحان ربنا الخلاق العظيم.. لقد قُبِضَتْ في دار الدنيا وقد خارت قواها ووهى عظمها، وذبلت زينتها، وذوى جسمها فجعلها الله ﷻ عذراء (عَروبًا) متعشقةً.. متحببةً.. محببةً.. متغنجةً.. ذات دلالٍ في أخلاقها، وسحرٍ في خلقتها.. ألا تشتاق.. بلى فلطالما عانى العشاق لِيَصِلُوا.. لسان حالهم في غابر عهدهم:

القلب محترقٌ، والدمع مستبقُ ◆◆◆ والكرب مجتمعٌ، والصبر مفترقُ

كيف القرارُ على من لا قرار له ◆◆◆ ممَّا جناه الهوى والشَّوقُ والقلقُ

يا رب إن يك شيءٌ فيه لي فرجٌ ◆◆◆ فامنن عليَّ به ما دام بي رمقُ[1]

بل رأيتَ أعظمَ من ذلك فهاهي ذي تقوم بين يديك بحركاتٍ لم تعتد عليها في الدنيا من التَّودُّد والتَّغنُّج والتَّحبُّب والتَّقرُّب.. لله ما ألذ هذا الوصال! وما أشهى ذلك التغنج والدلال! نعم! إنها عَروبٌ متحببةٌ إلى زوجها بالحلاوة والظرافة والملاحة، وهي عَروبٌ عاشقةٌ لك وأنت لها عاشق.. متملقةٌ لك.. متوددةٌ بأحسن الكلام بين يديك، مع حسن تَبَعُّلٍ طالما تمنيت استمراره في الدنيا، تراها على الحِجال -وهي

(١) الأبيات لسري السقطي، ينظر: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٨٣.

الأرائك- فلا تجد لشدة جمالها وتغنجها أي نموذج أو مثال:

وعَـروبٌ حَـوراء ذاتُ دَلالٍ ••• في حِجـالٍ تَـذوبُ حُبًّـا وشَـوقًا

هـي كاللـؤلؤِ الرَّطيـبِ بياضًـا ••• وصـفاءً يَعـودُ بالدَّهـرِ أَنْـقى

لا تَسَـلْني عَـنِ التَّغنُّـجِ فيهـا ••• هَـشَّ قَلْـبي مِـنَ السُّـرور ودَقَّا

يـا لِعشـقٍ يزيـده الدَّهـرُ عِشـقًا ••• هو أسمى من كلِّ وصـفٍ وأرقى[1]

أي خَلْقٍ يأسر النظر.. ويدعو إلى حُبٍّ مستقر.. كأنه سِحرٌ مستمر:

وقلَّبت الطَّرف فيها فأول شيءٍ بدأت بالنظر إليه: عيناها فإذا أنت ترى أمرًا يأسرك في الحسن والملاحة.. إنها حوراء عيناء.. فهي كما وصف مبدع الجمال ذو العزة والجلال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الواقعة: ٢٢]..

ثم تأملت في قامتها ومدِّ جسمها، فإذا هي ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٣]، صفاؤها صفاء الدر الذي في الأصداف.. لم تمسه الأيدي، ولم تصبر، فلمست تلك البشرة فوجدت أمرًا عظيمًا.. عظيمًا في الملاحة.. كأنها ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٩] حقًّا؛ فإن رقتها كرِقَّة الجلد الذي رأيتَ في داخل البيضة مما يلي القشور، وهي تجمع بين الرِّقة وشِدَّة الصفاء، هاهي ذي أمامك.. ألا يغريك ذاك باللمس.. ثم ما الذي أسرك فيها بعدُ: أعيونها، أم صفاؤها، أم...؟ فقلِّب طرفك فيها.. كيف تراك تجدها؟

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

قَلِّبِ الطَّرْفَ فالجمالُ تَجَلَّى ... وتَمَتَّعْ فكلُّ وَصفٍ عَجِيبُ

«يا جمالَ العيونِ تَأْسِرُ قَلْبِي ... وأرى الأَسْرَ في هواكِ يَطِيبُ»

وترى اللُّؤلؤَ الرَّطيب فتَهْفُو ... لصَفاءٍ هو الصَّفاء الحَبيبُ

الْمَسِ الجِلدَ فالمَلاحةُ فِيه ... رقَّ حتى يكاد حُسْنًا يَذوبُ[1]

مهلًا.. مهلًا.. أتريد أن تعرف مقدار صفائها، إنك من شدة صفائها ترى شيئًا عجيبًا، فعلى الرغم من أن على كلِّ زوجةٍ سبعين حُلَّةً فإنه يُرى مُخُّ ساقها من ورائها، يُرى مُخُّ ساقها من وراء اللحم.. كما يُرَى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، والمراد أنها ذات صفاء عالٍ، وبياضٍ عظيم.. تزداد جمالًا وحسنًا بصفائها كما يزداد الكأس جمالًا وأَلَقًا بصفائه حتى يكشف عما فيه من الشراب، وما زال جمالها وصفاؤها وطيب ريحها وأَلَقُ ثيابها.. يسلب عقلك، فتحبس عينك أن تنصرف عنها مجرد انصرافة.. كيف لا، ونبيك المصطفى ﷺ يقول:

« وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[2]

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

(٢) البخاري (٢٧٩٦).

هذا النصيف قارنه بأجمل نساء الأرض.. حاول أن تقارن.. ثم أعلن اليأس عن التصوير عندما تنتقل من النصيف إلى الشَّعَر..

يا لِجسمٍ قد جمَّلته ثيابٌ ... زاهياتٌ فكلُّ ثوبٍ قشيبُ

هي سبعون قد تناهت جَمالًا ... لك.. فانظرْ فكلُّ لونٍ قريبُ

وترى مُخَّ ساقها من وراء اللحم ... قلْ لي فكيف تُشْرَى العَرُوبُ

لو تراها وقد تَبَدَّتْ علينا ... فاستنارتْ منها الدُّنا والدُّروبُ

ونصيفٌ يُتَوِّجُ الرَّأسَ فيها ... هو خيرٌ ممَّا يقل الجَبُوبُ[1]

وسَبَاك أنهن من الكواعب، فهن الفتيات الناهدات اللواتي استدار ثديهن وبرز وظهر فيا حلاوة تلكم الأوانس النواعم، والظباء الكرائم، والجمال الذي لا يقاوم..!

◆ **ما هذا الذي عندكم يا صاحب القلب المنيب؟**

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: ٥٢]

عندكم قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، قصرت أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يمددن أعينهن إلى سواهم، وهن أتراب على سنٍّ واحدٍ، والطَّرْف بحسنهن شاهد، قد تساوين في الحسن والشباب، والجمال الفتَّان الخلَّاب.. بنات ثلاث وثلاثين سنة.. وهن أترابٌ أيضًا متواخيات لا يتباغضن

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني، والجَبُوب هي الأرض.

ولا يتغايرن[١]، ثم أعدتَ النظر في الوجه، فإذا هي من الحسان.. يا لِحْسن ذاك الوجه، وجمال ذاك القَدِّ، وخشيتَ من أن تخالف أخلاقها خلقها، فوجدتها من الخيرات الأخلاق الرفيعات الأذواق، لا عجب أن تكون زوجك كما قال الله ﷻ: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ [الرحمن: ٧٠]، خيرات الأخلاق، حسان الوجوه والأجساد، يسكنَّ الجنة لخيرين حسني الوجوه من أمثالك..

حُسْنُ وجهٍ يُزَيِّنُ خلقًا رفيعًا ◆◆◆ إنَّ عيشًا من دونها لجَديبُ

قَصَرَتْ طَرْفَها عليك فأنت الرُّوحُ ◆◆◆ منها، وأنتَ.. أنتَ الحَبيبُ[٢]

ثم وأنت تشرب هزَّك النظر في ثغر امرأتك وهي تتناول الكأس، إذ هو ثغرٌ حلوٌ شهيٌّ دفِيٌّ، يقترب من كأسٍ طيبٍ رخيٍّ هنيٍّ، فلا تدري عندها أسكرت من ثغرها طيب الأنفاس أم من سلافة معتقة في الكاس..فأخذت بيد إحداهن وانطلقتم نحو الأرائك متمازحين.. وناديت بالرحيل إلى سررك العالية لغيرها من الحور العين..

لطالما مرَّتْ عليك أوقاتٌ في الدنيا تتذكر مثل هذا النعيم في العقبى فتهتف مناجيًا راجيًا:

يا من تشابه منه الخَلْقُ والخُلُقُ ◆◆◆ فما تسافرُ إلا نحوه الحَدَقُ

لَمْ يَبْقَ لِي رَمَقٌ أَشْكُوهُ هَوَاكَ بِهِ ◆◆◆ وَإِنَّما يَتَشَكَّى من بِهِ رَمَقُ[٣]

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٣/ ١١٧٤.

(٢) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

(٣) أنشدها عبد الواحد بن نصر الببغاء. انظر: تاريخ بغداد ١١/ ١١.

مجلسٌ من مجالس الحب مع الأزواج المطهرة:

واستهللت مجلس الحب مع قاصرات الطرف..

فتعال ننظر حالكم وهيئات جلوسكم واستمتاعكم بأوقاتكم ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]، تدعون في مجلس الأنس بفاكهةٍ كثيرةٍ وشرابٍ، فمهما طلبتم وجدتم، وأُحضر لكم كما أردتم.. والشراب.. من أيِّ أنواعه شئتم أتتكم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٨].

◆ **ومنادي الحق ينادي:**

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]

ما آتيناكم من قوةٍ ونعيمٍ واستمتاعٍ هو عطاؤنا؛ كرامةً لكم ما له من انقطاعٍ أو زوالٍ أو أُفُولٍ، ولا ينقص عنكم ولا يحول.. فقرُّوا عينًا، وخذوا ما شئتم من النعيم، نعم! هذا عطاؤنا نزجيه لكم ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]: غير مقطوعٍ، ولكم فيها ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٨]: غير مقطوع.. وجناتكم، وأنهاركم، وبساتينكم ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]..

◆ **إنها جنة الخلد** لك فيها «**راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب، ولك فيها كذلك متعة الحوريات الشواب**»[1].

(١) انظر: الظلال ص٣٠٢٣.

وقت التضاحك في المضجع، والتقلب في المخدع.. تراه كيف يكون؟

◆ إلى الأرائك للعب والتمتع:

وأقبلتَ على الأرائك.. أقبلت على سُرُرك تتكئ، وتتودد إليك العُرُب الأتراب، فأقبلن يتكئن معك على الأرائك وقد نُزع ما فيهن من غل.. وهناك تدانت السُّرُر لتتدانى الأجساد.. وتنعمتم بنوعٍ من اللهو قبل أن تُرووا الأكباد.. من شغلكم فاكهين.. نوعٌ من اللهو كالمسامرة والضحك، والغمز وتضاغط الأيدي.. وأمثاله مما يحبذه العشاق.. عند اجتماع الشمل والتلاق.. بعد طول العهد والاشتياق.. فلا كلفة تنقص الألفة.. وإنما هي اللذة صرفة صرفة.. وعطفة تعقبها عطفة.. ورشفة تتلوها رشفة.. وضمة تتلوها رجفة.. ووصال يطفئ الشوق واللهفة..

وأريكتكم هي الأريكة التي لا تضاهيها أرائك الدنيا ولا سررها.. نعم! هي كما في الدنيا بَيْتٌ كالقُبَّة يُسْتَرُ بالثِّياب، وتكون له أَزْرَارٌ كبَارٌ[1]، وستائر رخيةٌ.. بيد أن الأمر لمن في الدنيا للتقريب لا غير، وإلا فالحقيقة لا تدركها عينٌ.

وعندما يأخذك حبُّ التقلب والتضاحك في المخدع والمضجع مع أهلك وسكنك وحُبِّك، فإنكم تأوون إلى فرشٍ مرفوعةٍ.. عاليةٍ.. وطيئةٍ.. ناعمةٍ.. تميل بكم متى شئتم وكان ألذَّ لكم، وتثبت متى أردتم، وكان أشهى لكم..

(١) النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٤٦.

هذه هي السرر التي تلهو وأهلك تحت أغطية ستائرها فاكهين: تارةً تتشبثون بالسرير، وأخرى تلهون بالستائر، وثالثةً تعاركون بعضكم عليها وفيها.. معاركة الأحباب.. الذين يستلذون بأطيب المضاربة أو المعاركة المستملحة، وأنت تلتفت إلى السرر ترى الفرش الرخية عليها تدعوك بهيئتها ونعومتها إلى أن ترمي بجسدك عليها مترعًا منعَّمًا..

فما أحلى اتكاءٍ في سرورٍ ... وفي ظلِّ الأرائكِ والخميلهْ

وهل أشهى لنفسِ الخِلِّ حالٌ ... وأحظى منْ منادمةِ الخليلهْ

فيا لِلَّه من أُنْسٍ وحُسْنٍ ... جميلٌ عندَ عاشقةٍ جميلهْ

ويا سُعدَ القلوبِ ويا مُناها ... إذا اجتمع الحليلُ إلى الحليلهْ[1]

عندها لم تملك نفسك.. حتى مضيت في شغلك اللذيذ.. ومنادي الحق ينادي: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾[يس: ٥٥].

ودَنَتْ مُتعةُ التَّقلُّبِ والضَّمِّ ... فمِلْتُم إلى الفِراش الوَثيرِ

هو عالٍ وناعمٌ ووطيءٌ ... أين مِنه نُعومةٌ من حريرِ؟

مالَ إن شئتَ أن يميل فلَذَّ ... الميلُ منه وكان مثوى الحبورِ

ومتى رُمتَ للفراشِ ثباتًا ... كان أشهى فما له من نظيرِ[2]

(١) الأبيات للدكتور سعيد بن دحباج.

(٢) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

من أصحاب هذا التنعيم وأهل ذياك التكريم؟

إنهم الذين كَانُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْمُجَاهَدَةِ يُصِرُّونَ، وَفِي دَيَاجِي اللَّيْلِ يَسْهَرُونَ، وَيَصُومُونَ وَهُمْ عَلَى الطَّعَامِ يَقْدِرُونَ، وَيُسَارِعُونَ إِلَى مَا يُرْضِي مَوْلاهُمْ وَيُبَادِرُونَ، فَشَكَرَ مَنْ رَاحَ مِنْهُمْ وغدا فهم غدًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣].

كانون يحملون أعباء الجهد والعنا، ويفرحون بِاللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ وَدَنَا، وَيَرْفُضُونَ الدُّنْيَا لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا تَصِيرُ إِلَى الْفَنَا، وَيُخَلِّصُونَ الأَعْمَالَ مِنْ شَوَائِبِ الآفَاتِ لَنَا، وَيُحَارِبُونَ الشَّيْطَانَ بِسِلاحٍ مِنَ التُّقَى أَقْطَعَ مِنَ السَّيْفِ وَأَصْلَبَ مِنَ الْقَنَا، فَغَدًا يَتَّكِئُونَ عَلَى الأَرَائِكَ وَقُطُوفُهُمْ دَانِيَةُ الْمُجْتَنَى، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا النَّعِيمِ أَنْ أَتَجَلَّى لَهُمْ أَنَا، كَفَى فَخْرًا أَنَّهُمْ عِنْدِي غَدًا يَحْضُرُونَ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣].

كَانَتْ جُنُوبُهُمْ تَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِهَا، وَلا تَسْكُنُ لأَجْلِي إِلَى مَوَاضِعِهَا، وَتَطْلُبُ مِنِّي نُفُوسُهُمْ جَزِيلَ مَنَافِعِهَا، وَتَسْتَجِيرُنِي مِنْ مَوَانِعِهَا وَتَسْتَعِيذُ بِجَلالِي مِنْ قَوَاطِعِهَا، وَتَصُولُ بِعِزَّتِي عَلَى مَخَادِعِهَا، فَقَدْ أَبْدَلْتُهُمْ بِتَعَبِ تِلْكَ الْمُجَاهَدَةِ لَذَّةَ السُّكُونِ، فَهُمْ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣].

يَا حُسْنَهُمْ وَالْوِلْدَانُ بِهِمْ يَحُفُّونَ، وَالْمَلائِكَةُ لَهُمْ يَزُفُّونَ، وَالْخُدَّامُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَقِفُونَ، وَقَدْ أَمِنُوا مَا كَانُوا يَخَافُونَ، وَبِالْحُورِ الْعِينِ الْحِسَانِ فِي خِيَامِ اللُّؤْلُؤِ يَتَنَعَّمُونَ،

وَعَلَى أَسِرَّةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ يَتَزَاوَرُونَ، وَبِالْوُجُوهِ النَّضِرَةِ يَتَقَابَلُونَ، وَيَقُولُونَ بِفَضْلِي عَلَيْهِمْ وَنِعْمَتِي لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ [المطففين: ٢٣].[١]

صورة الحُسْن تبدت.. لكنها الآن منكَ:

ورأيتَ أهلك وولدانك المخلدين ينظرون إليك بانبهار، فتعجبتَ ولربما صَدَرَتْ منك حركات الاستغراب المستملحة، ثم زال عجبك وأنت تنظر إلى صورتك، إذ رأيت هيئةً قد بلغت الغاية في الحُسْن.. إنها هيئتك «على صورة القمر ليلة البدر، أو على أشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء إضاءةً»، ومضى الوقت فإذا أنت تأكل وتشرب وتنعم وتهنأ، ولكنك لا تبصق ولا تمتخط، ولا تتغوط، ولا يصيبك مسٌّ من نصبٍ أو سقمٍ، فكيف يكون جمالك مع كل هذا التنعم فوق الجمال الذي توهبه ابتداءً حين يكون وجهك من الوجوه الناضرة البيضاء الضاحكة المستبشرة، ألم تجر عليكم قبل دخول الجنة نضرة النعيم؟ ولذا ترى حسنك وحسن أهلك يزداد حينًا بعد حين، وآنيتك تروح وتجيء دارةً رزقها عليك فإذا هي من الذهب، وأما أمشاطك فهي من الذهب والفضة، وأما مجامرك فهي الأُلُوَّة الْأَلَنْجُوجُ[٢] عود الطيب، وأما رَشْحُك فهو المسك، وهكذا فقتَ من حولك جمالًا وإضاءة، وأنت تتقلب بينهم لا تدري أنك أكثرهم جمالًا..

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٣٣.

(٢) وفي بعض الروايات: الأَنْجُوجُ.

عرفنا ما حباك الله ﷻ به من جمالٍ يُغطِّي الشمس.. فما حال ملابسك؟

خرجت إلى حورك، فنظرن فيك: أتراهن يقلبن وجوههن دهشةً لما حباك الله به من جمالٍ يا صاحب الوجه الأبيض الغض الناعم والمحيا المشرق الباسم الذي تعرف فيه نضرة النعيم، وقد رأينها.. لكن ثيابك وزينتك زادتك إشراقًا كما زدتها إشراقًا.. أترى ابن الخياط ﷺ كان يصفك حينما قال:

لَقَدْ لَبِسَتْ بِكَ الدُّنْيَا جَمالًا ◆◆◆ فلو كانَتْ يدًا كنتَ السِّوَارا

يُضِيءُ جَبِينُكَ الوَضَّاحُ فيها ◆◆◆ إذا ما الرَّكْبُ في الظَّلْماءِ حارا[1]

كيف حليتك أولًا؟ أتستطيع الوصف؟

انظر إلى جمال الحلي، وسبِّح بحمد العليم الغني.. إنها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١]، فعلى كلِّ واحدٍ منكم ثلاثة أنواعٍ من الأساور: فنوعٌ من ذهب، ونوع من فضة، ونوع من لؤلؤ.. أجل! إنهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣]، ومعها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] وانتبه!.. فإنك تُحَلَّى وتلبس بواسطة خدمك المتخصصين في اللباس، ولا تجهد نفسك لفعل ذلك بنفسك، فتارةً تلبسون الذهب، وتارةً تلبسون الفضة، وتارةً يجمع في يد أحدكم سواران من ذهبٍ، وسواران من فضة، وسواران من لؤلؤ ليجتمع لكم محاسن الجنة، ويجعل لكلٍّ

(١) ديوان ابن الخياط، ص: ٤.

قومٍ منكم ما تميل إليه نفوسهم[1]، والسِّوار هو الذي يلبس في الذِّراع من ذهبٍ، فإن كان من فضةٍ فهو قلب[2].

وعندما خرجت لتلقى بقية المصطفين الأخيار من صحبك الأبرار.. نظرتم إلى بعضكم فإذا بينكم تفاوتٌ في مقدار الحلية، عندها لربما تذكرت وأنى لك الذكرى، تذكرت أن سبب هذا التفاوت بينكم في الحلية يرجع إلى إتقان الوضوء، إذ «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[3]، فيا ليت قومي من أهل الدنيا يعلمون..

◆ **اهتف معي مقبلًا على ربك:**

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

فلما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة.

وتصوَّرْ مقدار الجمال والبريق اللَّذين يصدران عن الأساور، فإنه «لو أن رجلًا من أهل الجنة اطَّلع فبدا أساوره لطمس ضوءَ الشَّمسِ كما تَطْمِسُ الشَّمسُ ضوءَ النُّجوم»[4]، ومنادي الحق ينادي: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٦].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي١٩/ ١٤٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي١٠/ ٣٩٦.

(٣) مسلم١/ ٣٩٦ (٢٥٠).

(٤) سبق تخريجه: أحمد (١٤٤٩)، الترمذي (٢٥٣٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ بِهَذَا الإِسْنَادِ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ»، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٩٦).

إنه منظرٌ تسيل له الأدمع المشتاقة، وتهفو له نفسٌ مكابدةٌ تواقة..

سَفَكْتُ عَلَيْهِ أَدْمُعِي فَسَقَيْتُهُ ◆◆◆ كَمَا هُوَ مِنْ كَأْسِ الشُّجُونِ سَقَانِي

وقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وَقْفَةَ هَائِمٍ ◆◆◆ أُعَالِجُ قَلْبًا دَائِمَ الخَفَقَانِ[1]

وقال آخر:

تَبْدُو عَلَيكَ مِنَ الوَسَامَةِ حُلَّةٌ ◆◆◆ يهفُو إليهَا بالنُّفوسِ وِدادُ

أيها المزكي لنفسه، أيها المطهر لقلبه: هذا وصف بريق أساورك في الجنة.. انظر أيها المشتاق لعِظم تلك الزينة والمنَّة، ثم قل لي: هذه حليتك فكيف ستكون أنت؟ ولا تنس عندها أن ترفع يديك سائلًا ربك الرحيم جنة النعيم.

◆ **والآن إليك صورةً مبسطةً لهيئةٍ من هيئاتكم:**

تتأمل فيكم فإذا أنتم «مسوَّرون بالذَّهب والفضة، مُكَلَّلَةٌ بالدر، وعليكم أكاليل من درٍّ وياقوت متواصلة، ويُزَيِّنُكم من أعلى تاجٌ يقرب منه تاج الملوك، وأنتم شبابٌ جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُون»[2].

هذه هي الأساور؟ فكيف ستكون الثياب؟

وأنت أمام نسائك يقلبن النظر فيك بعد أن أخذهن بريق أساورك، عُدْنَ يرجعن

(١) العاقبة في ذكر الموت، ابن الخراط، ص: ١٤٦.

(٢) البيت لابن زيدون. ينظر ديوانه، ص: ٢٢٣.

النظر في ثيابك فإذا أنت قد لبست ثياب الحرير من ﴿سُندُسٍ خُضرٌ وَإِستَبرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]، فمَرَّةً يَرَيْنَك وقد لبست ثوبًا أخضر من السُّندس الحريري الرقيق النَّحيف، ولأنك تتمتع بتبديل ثيابك متى عنَّ لك، فإنك تظهر أحيانًا أخرى وقد لبست ثيابًا خضرًا من الإستبرق ممَّا ثَخُنَ من الحرير، والإستبرق هو الديباج المنسوج بالذهب، وتارةً تجمع بين النوعين، فتلبس السندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي الأبدان، وتارة تلبس الإستبرق بين الناس بما فيه من بريقٍ ولمعانٍ، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس، تتقلب بين حرير رقيق، أو سميك مُبَطَّنٍ أنيق.

ولكن أيا حبيب الجنة: لا تقلق! ربما تحب لونًا غير الأخضر.. حسنًا فإنك تلبس الألوان المختلفة خضراء أو بيضاء أو سوداء أو غيرها، وإنما ذكر الله ﷻ اللون الأخضر في لباسك لأنه الموافق للبصر.. المنسجم مع خضرة الجنة.. فالبياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد وذلك يجمع الشعاع[1].

وهل أطيب من الخضرة تُفرش بها أرجاء الجنة فتصير بها كواسي.. أو يخطر بها الأبرار في فاخر الرياش واللباس.. لكأن البارودي ﷺ يصف هذا المنظر البهيج حين يقول:

فَـدُرْ بعينيـكَ حيـثُ شِـئتَ تَجِدْ ◆◆◆ مُلْـكًا كَبِيـرًا وَجَنَّـةً خَضِـرَهْ

سـماؤها بالغُصـونِ واشِـجةٌ ◆◆◆ وأرضُهـا بالنَّبـاتِ مُؤْتَـزِرهْ

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٠/ ٣٩٧.

مَنْظَـرُ لَهْـوٍ تُعِيـدُ بَهْجَتُـهُ ... أَكِنَّـةَ الْعَيْـشِ وَهْـيَ مُنْحَسِـرَهْ

فَالْعُفْـرُ تَحْـتَ الـظِّلَالِ رَاتِعَـةٌ ... وَالطَّيْـرُ فَـوْقَ الْغُصُونِ مُنْتَشِـرَهْ

والطَّـلُّ ينهـلُّ مِـن مسـاقِطِهِ ... مِثْـلَ عُقُـودِ الْجُمَـانِ مُنْتَثِـرَهْ

جَـدَاوِلٌ فِي الْفَضَـاءِ جَارِيَـةٌ ... ومُزْنَـةٌ فِـي السَّـمَاءِ مُنْهَمِـرَهْ

إنـه لبـاس أهـل الجنـة.. تراهـم ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: ٢١] عاليهـم.. «تأمـل مـا دلـت عليـه لفظـة ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ مـن كـون ذلـك اللبـاس ظاهـرًا بـارزًا يجمـل ظواهرهـم ليـس بمنـزلة الشـعار الباطـن، بـل الذي يلبـس فـوق الثيـاب للزينـة والجمـال»[1].

ونـداء مـن الـملأ الأعلـى ينـادي عليكـم بالتهنئـة والتكريـم، والبشـرى بالنعيـم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢]، جازاكـم الله تعالـى علـى العمـل اليسـير بالأجـر الكثيـر، وبالسـعي القليـل بالثـواب الوفيـر، وهـذا النـداء لكـم يعـدل هـذه المناعـم كلهـا، ويمنحهـا قيمـة أخـرى فـوق قيمتهـا.

الله! الله! مـا مقـدار الحـب الـذي تكنُّـه في صـدرك لربـك الغفـور الـودود.. ألا تـراه -كمـا يقـول قتـادة رحمه الله- غفـر لكـم الذنـب، وشـكر لكـم الحسـنى...

وأنتـم في هـذه الزينـة وهـذا المتـاع، تتلقونـه كلَّـه مـن ربِّكـم ﷻ، فهـو عطـاءٌ كريـمٌ مـن معطٍ كريـم.

(١) حادي الأرواح، ص: ١٣٦.

◆ **يا خاطب الجنة، وصاحبها الحميم:** إنه النعيم المقيم.. انظر فيه إلى ما أسبغ الله ﷻ عليك به من الفضل العميم.

ومنادي السَّماء نادى بلُطْفٍ ... «أبشروا كان سعيُكُم مَشْكُورا»[1]

◆ **مجلس أُنسٍ يضم زوجتك أو زوجاتك من أهل الدنيا ونساءك من الحور العين.. قارن!**

وفي مجلس أنس فريدٍ من نوعه.. اجتمع فيه زوجتك أو زوجاتك من أهل الدنيا مع نسائك من الحور العين، لا غيرة بينهن ولا تباغض، فقد نزع الله ﷻ الغلَّ من قلوب المؤمنين وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا، أذهب ما في صدورهم من فحش الدنيا وضغائنها..

اجتمعن معًا في مجلسٍ واحدٍ.. وصرت جالسًا بين أيديهن، قد أشرقت منكم الأنور.. كشمسٍ بين أقمار.. بجمال يختلب الأبصار.. ونظرت إليهن نظرة حُبٍّ في أثناء تضاحككم ولعبكم، فإذا هن أترابٌ في الأخلاق، متواخياتٌ بينهن، ليس بينهن تباغضٌ ولا تحاسدٌ، لا كما كنَّ ضرائر متعاديات في الدنيا، وهن أترابٌ مستويات الأسنان يأتلفن جميعًا، ويلعبن جميعًا.. ولكأن عبد الغفار الأخرس ﷺ يصف لطيف مجمعكم حين قال:

(١) لشاعرنا المبدع عبد الرحمن العديني.

إنَّما السَّاعةُ التي جَمَعَتْهم ... جَمَعَتْ لي محاسنَ الآفاقِ

فغَدَتْ مثلَ روضةٍ باكَرَتْها ... غادياتٌ بالوابلِ المِهْراقِ

فكأنَّ الحديثَ فيه مُدامٌ ... حَمَلَتْها إليَّ كفُّ السَّاقي

مجلسٌ ما انْطَوى على غيرِ أُنْسٍ ... وخلا من تحاسُدٍ ونِفاقِ[1]

قد حَسُنَ من كلٍّ منهن المِيْسَم، وأشرق المَبْسَم، وكلُّ ما فيها وبها أحلى وأنعم.. وحانت منك نظرةٌ لهن فتأملت فإذا هن بيض الألوان.. خضر الثياب.. صفر الحلي.. مجامرهن الدُّر.. وأمشاطهن الذهب.. نظراتهن السِّحر الحلال.. ورُضابهن (ريقهن) العذب الزلال.. وطبعهن التَّغنُّج والدَّلال..

أعدِ النظر إليهن مراتٍ.. فهل يُمل منهن؟ لا! إنهن حورٌ حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياءً وعفة.. مع أنهن ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافات: ٤٨]: واسعاتٌ جميلات العيون! وهن كذلك مصوناتٌ مع رقَّةٍ ولطفٍ ونعومة: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٩]، لا تبتذله الأيدي ولا العيون!»[2].

فيا نظرةً أَهْدَتْ إلى الوجهِ نَضْرةً ... أَمِنْ بعدِها يَسلو المحبُّ المُتَيَّمُ

ولله كم من خَيْرَةٍ إنْ تَبَسَّمتْ ... أضاء لها نورٌ من الفجر أعظمُ[3]

(١) ديوان عبد الغفار الأخرس، ص: ٤٣٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ص: ٢٩٨٧.

(٣) الأبيات من القصيدة الميمية لابن القيم. ينظر: حادي الأرواح (ص: ١١).

◆ نساء الدنيا زادت الطاعة في حسنهن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩]:

اجتمعت نساؤك من نساء الدنيا مع الحور العين.. كل منهن عَروبٌ متحببةٌ متغنجةٌ، وبعد أن كنتَ تشهد الواحدة منهنَّ وحدها فتظنُّ أنها قد استولت على الحسن كلِّه، وأنْ ليس بعد جمالها بعد.. وظهر لك فرقٌ عظيم بين الصنفين في الحسن والجمال.. فإن نساء الدنيا أفضل من الحور العين..لا غرو! ألم يُكْسينَ نورًا وحسنًا بعظيم عبادتهن وطاعتهن في الدنيا.. فذلك زيادةٌ يزيدها الله ﷻ في خلقهن بما كنَّ يعملن في الدنيا.. ولم لا يكنَّ أجمل وأحسن؟ انظر إليهن.. كيف زادت الطاعة في حسنهن؟! اكتسبن ذلك بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ﷻ، فقذف الله ﷻ في الدنيا في قلوبهن نورًا، وزادهن في الأخرى بهجةً وسرورًا.. ومنادي الحق ينادي:

﴿ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩].

◆ هل ستغار الحور من هذا الجمال البهيج لنساء الدنيا؟

كان ذلك سيكون لولا أن الله ﷻ ينزع الغيرة منهن.. ولم لا تحق لهن الغيرة.. وهن يرين من الجمال ما لا يوصف، والقوام الذي يشبه الغصن الرطيب الأهيف، لا بل هو أرق وأحلى وألطف؟ فهل سيتساءلن: من هذه التي غطَّت جمالهن الأخاذ؟! أم سيبادر زوجها الذي ربما لن يعرفها للوهلة الأولى وقد أنشأها الله ﷻ إنشاء، وأعاد بناء جسدها من جديد.. فغطت الشمس بجمالها، وأهاجت الفؤاد بدلالها.. وعندما يبادر زوجها للسؤال فما تراه يقول: يا هذه من أنت...؟!

يـا أنـتِ مـا هـذا الجمـالْ؟ ••• ولمـن أرى هـذا الـدَّلالْ؟
الحُسْـنُ فيـك تجـمَّعا ••• أخجلـتِ ربَّـاتِ الحِجـالْ
المِسـكُ أنـتِ أريجُـهُ ••• والـدُّرُّ أنـتِ لـه المِثـالْ
إني أراكِ بديعـةً ••• بـالله مـا هـذا الجـمالْ؟
عـادت قلـيلًا للـورا ••• وتذكَّـرتْ بيـضَ الفِـعالْ
وسَـبَتْه حيـن تبسَّـمت ••• فـرأى لِفِـتْنَتِها اكتـمالْ
قالـتْ وسِـحرُ حديثِها ••• يهفـو فتنـتعشُ الظِّـلالْ
زاد الجمـالَ بطـاعةٍ ••• للهِ ربـي ذي الجـلالْ
فـاض الفـؤادُ بحُبِّـهِ ••• والحُـبُّ عنـوانُ الكمـالْ
أنـا مـن ينـاجي ربَّـهُ ••• في اللَّـيلِ إذْ أرخـى الحبـالْ
أدعـوه أَذْرِفُ أَدْمُعـي ••• وأخـافُ مـن سـوءِ المـآلْ
حفظـي لربِّـي في الخَفـا ••• ذُلِّـي لـه في كلِّ حـالْ
ومنعـتُ نفسـيَ مـا نَهَـى ••• وأطبـتُ سَـمْعي والمقـالْ
لبـسُ الحجـابِ ألا تـرى ••• زادَ الجمـالَ علـى الجمـالْ[1]

(١) لحادي الركب: عبد الرحمن العديني.

طيب هو مسكٌ فوَّاح.. وأريجٌ للأرواح:

وأما طيبها وعبيرها الذي يفوح منها، فأقل ما فيه أن يقال: هو الذي يكسب الطِّيب طيبًا، وهو الذي يعطِّر المسك لا العكس، وهو حقيق بوصف مالك بن أسماء رحمه الله:

وتَزِيدِينَ طَيِّبَ الطِّيبِ طِيبًا ... إِنْ تَمَسِّيهِ أَيْنَ مِثْلُكِ أَيْنَا

وَإِذَا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وُجُوهٍ ... كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنُ وَجهِكَ زَيْنا[1]

اطمئن هذا جمال لا يشينه قذر ولا يشوبه وضر:

انظر إليهن.. مَتِّعْ نظرك بما حُبِينَ به من جمال، وربما ظننت أنه يُكَدِّرُ عليك في هذا الجمال ما كان يُكَدِّرُ عليك في الدنيا من أن هؤلاء الأزواج يخفين وراء جمالهن أذى وقذى ينقص ذلك الجمال ويشينه.. من حيض ونفاس.. فتأتيك البشرى: أبشر! فهذا الجمال جمالٌ محض لم يُشَبْ.. لم يختلط بشائبة أذى، فإن هؤلاء الأزواج ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] طُهِّرْن من كلِّ أذى وقذى وريبة مما يكون في نساء أهل الدنيا؛ من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق بل وحتى المني، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره[2] إنهن النساء.. ولكنَّ نساء الجنة:

(١) كما تنسب هذه الأبيات للأحوص بن محمد. ينظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري ٤/ ٢٤٧.

(٢) انظر: الطبري١/ ١٦٩.

نســاؤها المؤمنــاتُ الصابراتُ على ◆◆◆ حفظِ العهودِ مــع الإملاقِ والضَّررِ

كأنَّهــنَّ بُــدورٌ في غصــونِ نقــا ◆◆◆ على كثيبٍ بَدَتْ في ظلمة السَّــحَرِ[1]

ألا من غناءٍ يزيد مجلس الأنس طربًا:

واشـتهيتَ منهـن غنـاء يزيـدك طربًـا، أو سـبقنك لـذاك لزيـادة وَلَعِـك.. فعنـد ذاك اجتمعـن معًـا.. اسـمع نبيك ﷺ وهـو يصـف ذاك الاجتمـاع البديـع فيقـول: «إنَّ في الجنَّةِ لمُجْتمعًا لِلْحُورِ العِينِ، يَرْفَعْنَ بِأصْواتٍ لـم يَسْمعِ الخلائقُ مِثْلَهَا»[2].. وتراهـن وهـن «يغنيـن أزواجهـن بأحسـن أصـوات مـا سـمعها أحـد قـط»[3]..

هاهـن قـد قمـن يتغنجـن بيـن يديـك، ويرفعـن أصواتهـن بغنـاءٍ عـذبٍ جميلٍ.. حسـن الترخيـم.. حلـو الترنيـم.. وربمـا تراقصـن بيـن يديـك متغنجـات.. يتهاديـن فعـل الجـواري المائسـات.. بيـن يـدي أسـيادهن في أيـام الدنيـا الخاليـات وكان ممـا سـمعته منهـن ممـا زاد شـوقك للعنـاق، وحُبَّـك لـذاك الارتفـاق:

نحن الخالدات فلا نموت أبدًا.. ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا..

ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا..

---

(١) البيتان لابن مشرف. ينظر: ديوانه (ص: ٣٤١).

(٢) الترمذي (٢٥٦٤)، وقال: "حَدِيثٌ غَرِيبٌ"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٢٣١).

(٣) الطبراني في الصغير (٧٣٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩ : "رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ"، وذكر محققو "المطالب العالية" ١٨/ ٦٧٦ أن الحديث بمجموع طرقه وشاهد له يرتقي إلى الحسن لغيره.

ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا.. طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا..

ومن غنائهن: «نحن الخيرات الحسان.. أزواج قومٍ كرام.. يُنْظَرْن بقُرَّة أعيان[1]..»[2].

ولئن حاولت تنغيم هذه الأبيات لتجدنَّ لوقعها وإثارتها عجبًا.. فكيف وهو يصدر ممن وضاءتها تمسح عين الشمس؟!

فيا لَذَّةَ الأبصارِ إنْ هي أَقْبلتْ ... ويا لَذَّةَ الأسماعِ حين تَكَلَّمُ[3]

التفاتة السِّحْر:

وفي أثناء غنائهن وتغنجهن شدت انتباهك إحداهن فصرت لا تجيل عنها الطرف.. فقمت تهتصر الغصون الناعمات، وتجتني الورد الخدود المورَّدات..

وَإِذَا بَدَتْ فِي حُلَّةٍ مِنْ لِبسِهَا ... وتَمَايَلَتْ كَتَمَايُلِ النَّشْوَانِ

تَهْتَزُّ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ وَحَمْلُهُ ... وَرْدٌ وَتُفَّاحٌ عَلَى رُمَّانِ

حَتَّى إِذَا مَا وَاجَهَتْهُ تَقَابَلَا ... أَرَأَيْتَ قطُّ تقابُلَ القَمَرَانِ؟

فَسَلِ المُتَيَّمَ هَلْ يَحِلُّ الصَّبْرُ عَنْ ... ضَمٍّ وَتَقْبِيلٍ وَعَنْ فَلَتَانِ؟

---

(١) أي ينظر إليهن فتقر أعين الناظر إليهن.

(٢) الطبراني في الأوسط (٤٩١٧)، وقال في مجمع الزوائد١٠/ ٤١٩: "ورجاله رجال الصحيح".

(٣) البيت من ميمية ابن القيم. حادي الأرواح، ص: ١١.

وَسَـلِ المُتَيَّـمَ أَيْـنَ خَلَّـفَ صَبْرَهُ ... فِـي أيِّ وَادٍ أَمْ بِـأيِّ مَـكَانِ؟

وَسَـلِ المُتَيَّـمَ كَيـفَ حَالَتُـه وَقَـدْ ... مُلِئَـتْ لَـهُ الأُذُنَـانِ وَالعَيْنَـانِ

مِـنْ مَنْطِـقٍ رَقَّـتْ حَوَاشِـيهِ وَوَجْـ ... ـهٍ كَمْ بِهِ لِلشَّـمْسِ مِنْ جَرَيَانِ؟[1]

◆ **ولكن مهلًا لا تشغلك الأولى عن الثانية.. ألا يكفيك احمرار الخدود عن طلب التحول من نهود إلى نهود؟**

فإن أهل الجنة «لِكُلِّ رَجُلٍ منهم زَوْجَتان»[2]، سوى الحور العين، فلا تنشغل بواحدة دون الأخرى، تدخل على الأولى منهما فإذا هي في غرفةٍ من ياقوتةٍ على سريرٍ من ذهبٍ مُكَلَّلٍ باللؤلؤ عليه سبعون زوجًا من سندسٍ وإستبرقٍ، وتأمل المشهد الذي هزَّ العشَّاق طربًا؛ إذ يضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها، وإنه لينظر إلى مُخِّ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت.. كَبِدُه لها مرآة.. وكَبِدُها له مرآة.. فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله، ولا يأتيها من مرةٍ إلا ويجدها عذراء.. فبينما هو كذلك إذ نودي من الثانية المستهامة المنتظرة: قد عرفنا أنك لا تَمَل، ولا تُمَل.. إلا أن لك أزواجًا غيرها.. فيخرج فيأتيهن واحدةً واحدة.. كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنَّة شيءٌ أحسن منك، وما في الجنَّة شيءٌ أحبَّ إليَّ منك[3]..

(١) نونية ابن القيم، ص: ٣٣٩.

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، مسلم (٢٨٣٤).

(٣) ورد مرفوعًا في حديث الصور الطويل. وقد ذكرناه لأن واقع الآيات والأحاديث الصحاح تدل عليه.

عند ذاك يسدل الستار على مجلس الاستمتاع بأمتع إزار، حتى إن الواحد من أهل الجنة «ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والنِّكاح»[1]، حسبه بذلك استمتاعًا.. وهو في دنياه عندما يريد الزيادة على ما أوتي من قوةٍ ضعيفة يكاد ينهار دون ذلك انقطاعًا.

ويا خَجْلَةَ الغصنِ الرَّطيبِ إذا انـ ... ـثنتْ ويا خجلة الفجرين حين تَبَسَّمُ

فإن كنت ذا قلبٍ عليل بحبها ... فلم يَبْقَ إلَّا وصلُها لك مَرْهَمُ

ولا سيَّما في لَثْمِها عند ضمها ... وقد صارَ منها تحت جيدِكَ معصمُ[2]

وهناك رددت الأصداء انشغال أصحاب الجنة بألذ شغلٍ يبتغيه الشباب، ويرجوه العشاق عند أحب لقاء: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٥، ٥٦]، فهل شغلهم إلا افتضاضُ العذارى كما قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد..؟ إنه شغل المحبين.. فما هو إلا:

شُغْلُ العَرُوسِ بعِرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا ... عَبِثَتْ بِهِ الأشْوَاقُ طُولَ زَمَانِ

بِاللهِ لَا تَسْأَلْهُ عَنْ أَشْغَالِهِ ... تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُهُ ذُو شَانِ

وَاضْرِبْ لَهُ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ ... مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ البُلْدَانِ

---

(١) أحمد (١٩٢٦٩)، الترمذي (٥٣٦)، وقال: صحيح غريب، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٦: «وَرِجَالُ أَحْمَدَ وَالْبَزَّارِ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ ثُمَامَةَ بْنِ عُقْبَةَ، وَهُوَ ثِقَةٌ».

(٢) الأبيات من ميمية ابن القيم. حادي الأرواح، ص: ١١.

والشَّـوْقُ يُزْعِجُـهُ إِلَيْـهِ وَمَـا لَـهُ ... بِلِقَائِـهِ سَـبَبٌ مِـنَ الإِمْـكَانِ

وَافَـى إِلَيْـهِ بَعْـدَ طُـولِ مَغِيبِـهِ ... عَنْـهُ وَصَـارَ الوَصْـلُ ذَا إِمْـكَانِ

أَتَلُومُـهُ أَنْ صَـارَ ذَا شُـغُلٍ بِـهِ ... لَا وَالَّـذِي أَعْطَـى بِلَا حُسْـبَانِ[1]

ويطيب لهم هذا الشغل حتى إن الرجل منهم -كما يقول أبو قلابة رحمه الله-: بينما يكون مع أهله، إذ قيل له: تحول إلى أهلك، فيقول: أنا مع أهلي مشغولٌ. فيقال: تحول أيضًا إلى أهلك[2]، ألا يكفيك احمرار الخدود عند طلب التحول من نهود إلى نهود..

كَأَنَّ احْمِـرَارَ الْـوَرْدِ فَـوْقَ غُصُونِـهِ ... بِوَقْتِ الضُّحَى فِـي رَوْضَةِ الْمُتَضَاحِكِ

خُـدُودُ عَذَارَى قَـدْ خَجِلْنَ مِـنَ الْحَيَا ... تَهَادَيْـنَ بالرَّيحَـانِ فَـوْقَ الأرائِـكِ

ملاعبة ومداعبة على الأرائك تحت ظلال الأشجار:

وهكذا فأنتم في شغلكم فاكهون مسرورون.. معجبون.. ناعمون.. متمازحون مع طيب خاطر، وضحكة فمٍ، وسرور قلبٍ، وانشراح صدرٍ، وأُنْسِ نفسٍ[3]، وقد تتنعم مع أهلك تحت ظلال الأشجار على الأرائك متكئون ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

(١) نونية ابن القيم، ص: ٣٣٦.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٤٣، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٤.

واتكأتم فيها على الأرائك متقابلين.. وكستكم النعمة فلا ترون فيها شمسًا ولا تحسون زمهريرًا.. فأنتم تلتفتون فلا ترون فيها شمسًا كشمس الدنيا ولا قمرًا كقمر الدنيا تجدون أنفسكم في ضياءٍ مستديم لا ليل فيه ولا نهار.. وداعي الوصف يراكم بأجمل حياةٍ فيردد ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ [الإنسان: ١٢، ١٣].

هناك ترى اللذات صفوًا بلا شائبة تنغيصٍ، فليس في الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس، ولا شدة بردٍ كزمهرير الدنيا.. ليس عندكم حرٌّ مزعجٌ.. ولا بردٌ مؤلمٌ.. بل هي مزاجٌ واحدٌ دائمٌ سرمديٌّ لا تبغون عنها حِوَلًا.. قد جمعت بين لطف الهواء، ودفء السناء.. وأضاءت بالإشراق من غير إحراق.. نظر أبو العالية ﷺ إلى السماء ذات صباح، وذلك قبل طلوع الشمس، وبعد صلاة الفجر، فقال:"هكذا نهار الجنة"[1]، وهذا منه تقريب وإلا فحقيقة الحال ألطف..

حين يسطع الثَّغر البسَّام، ويضيء الدنيا جمال الابتسام:

بينما أنتم في الجنة إذ رأيتم نورًا أشرق، وضوءًا أبرق.. فلربما ظننتموه شمسًا قد أشرقت فأشرقت بذلك النور الجنة.. وإنما هو ابتسامةٌ سطَّرها ثغر حسناء من الحور لزوجها..

(١) ينظر: صفة الجنة لأبي نعيم ٢/ ٥٤.

كَمُلَتْ خَلائِقُهَا وَأُكْمِلَ حُسْنُهَا ◆◆◆ كَالبَدْرِ لَيْلَ السِّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ

وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا ◆◆◆ وَاللَّيْلُ تَحْتَ ذَوَائِبِ الأَغْصَانِ

وَالبَرقُ يَبدُو حِينَ يَبْسِمُ ثَغْرُهَا ◆◆◆ فَيُضِيءُ سَقْفَ القَصْرِ بالجُدْرَانِ

وَلقَدْ رَوَينَا أنَّ بَرقًا لامعًا ◆◆◆ يَبْدُو فَيَسأَلُ عَنْهُ مَنْ بِجِنَانِ؟

فَيُقَالُ هَذَا ضَوْءُ ثَغْرٍ ضَاحِكٍ ◆◆◆ فِي الجَنَّةِ العُلْيَا كَمَا تَرَيَانِ

لله لَاثِمُ ذَلِكَ الثَّغْرِ الَّذِي ◆◆◆ فِي لَثْمِهِ إِدْرَاكُ كُلِّ أَمَانِي[1]

وتزول جميع الهموم.. وتنقشع كل الغموم.. لرؤية وجهها.. لكأنه نقش مرسوم!

تراه إذا أَبْدَتْ لـه حُسْنَ وَجْهِها ◆◆◆ يلَذُّ به قبل الوصال، ويَنعَمُ

تُذَكِّرُ بالرَّحمن مَنْ هُوَ ناظرٌ ◆◆◆ فينطقُ بالتَّسبيحِ لا يتلعثمُ

إذا قَابَلَتْ جيشَ الهُموم بوجهها ◆◆◆ تولَّى على أعقابه الجيشُ يُهْزَمُ[2]

ولعلك أردتَ أن تكرر النظر والحوار.. في جلسات المحادثة فعل السُّمَّار.. فلتتلذذ الآذان بالتكرار.. ولتتشنف الأسماع والأبصار بالحديث على أوجهٍ أخرى مختلفة، ومعان رائقة مؤتلفة.. لقد كان هذا غاية ما يسعى إليه الدنيويون: تكرار ما يجدونه من لذَّاتٍ.. ولو بفعل المستحيلات.. بعد زمن الهرم والموات.. لكنك

(١) نونية ابن القيم، ص: ٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) الأبيات من ميمية ابن القيم. حادي الأرواح، ص: ١١.

تعيش خالدًا مخلدًا في شبابك فافعل ما بدا لك من نعيمٍ.. وكرِّرْ ما أحببت من لذَّةٍ..

وأَعِدْ ما شئت من أقوال:

يا مَنْ يُذَكِّرُني بعهدِ أحبتي ••• طابَ الحديثُ بذكْرِهم ويطيبُ

أَعِدِ الحديثَ عليَّ مِنْ جَنَباتِهِ ••• إنَّ الحديثَ عَنِ الحبيبِ حبيبُ[1]

◆ **أين من يعدُّ المهر الخالص لمثل هذه اللذة الصافية.. فاذكر هنا أيا خاطب الحور الحسان..**

اذكر أن بعض الصالحين قال: كنت في مجلس أبي منصورٍ الواعظ فوقعت رقعةٌ في المجلس.. فإذا فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا أبا منصور أنا رجلٌ من إخوانك.. تُبْتُ إلى الله على يديك.. وأنا اشتريت من الله ﷻ حُورًا على صداق ثلاثين ختمة.. فختمت منها تسعًا وعشرين فأنا في الثلاثين.. إذ حملتني عيناي -أي نمتُ- فرأيت كأن حوراء خرجت عليَّ من المحراب.. فلما رأتني أنظر إليها أنشأت تقول برخيم صوتها:

أتخطبُ مِثْلي وعنِّي تنامُ ••• ونومُ المحبِّين عنِّي حرام

لِأَنَّا خُلِقْنا لِكُلِّ امْرِئٍ ••• كَثيرِ الصَّلاةِ بَراهُ الصِّيامُ[2]

---

(١) الأبيات لمحمد بن عبد الملك بن زهر. ينظر: المحاضرات والمحاورات للسيوطي (ص: ٤٠٢).

(٢) انظر: حلية الأولياء ٩/ ٣٢٦.

◆ **وبعد: فما رأيك بنعيمٍ كهذا النعيم: ألا تسرج له مركب الشوق بعبادةٍ قانتة، وركعة خاشعة؟**

وأنتم مشغولون بما أنتم فيه من النعيم، ملتذون متفكهون.. تتكئون في ظلالٍ مستطابةٍ.. تستروحون نسيمها، يأتيكم ما تطلبون من فاكهةٍ.. وما تشتهون من غيرها مما يمتعُ جلستكم، ويزيدكم نعيمكم.. ولكم فوق اللذائذ تحايا التأهيل والتكريم: سلامٌ.. تتلقونه من ربكم الكريم: ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]..[(١)].

وهكذا يستمرُّ نعيمكم لا تبلى ثيابكم، ولا يفنى شبابكم.. ولا تضعف قوَّتكم، وتتجدَّد لكم في كلِّ حينٍ لذَّاتكم وشهواتكم.. ولقد ترى الدنيويين المترعين بشبابهم يملؤون الدنيا ضجيجًا بما حباهم الله ﷻ به قوَّة جسد، وحلاوة مشهد، فما يفتؤون يطلبون لذَّتهم قبل اختزام المنايا لهم، فكيف ولذات الدنيا كلُّها تُمَل.. وبها الأبدان تَكِل.. وتصاب بالعلل.. لو قورنت بلذات الآخرة المتجددة المستطابة.. ولمَّا سأل الأصحاب قائلين: يا رسول الله، نفضي إلى نسائنا في الجنة؟ أجابهم: «إي والذي نفسي بيده، إن الرجل ليفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»[(٢)]..

وحسبك ذلك فإن له ما بعده وإنما هي إشارة إلى مكمن العشق الأحق.. لا إلى عشق الزيف، والاكتفاء في الدنيا بالرمق.

---

(١) انظر: الظلال، ص٢٩٧٢.

(٢) الطبراني في المعجم الصغير (٧٩٥)، و الأوسط (٧١٨)، قال الحافظ المقدسي في صفة الجنة ١/ ٤٦ عن هذا الحديث: "هو عندي على شرط الصحيح"، وقال الألباني في الصحيحة (٣٦٧) تعليقا على كلام المقدسي: "وأقره الحافظ ابن كثير، وهو كما قالا، فالسند صحيح، ولا نعلم له علة".

فما ترى في هذا النعيم أيا حبيب الجنة وعاشقها: تفكهٌ مع الأبكار.. سماعٌ لغناءٍ عذبٍ مع الأبرار[1]، وإنما يحاول أهل الدنيا التقليد.. وهل يمكن تقليد ما يفنى بما يبقى، أو يلحق الثرى بالنجم الأعلى.. بل أيدركه وهو عنه منقطعٌ لا يصل إلى ذرةٍ منه أو أدنى..﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النجم: ٥٥].

وقد أسكت النبي ﷺ تطلع التصورات حينما ذكر أن كلَّ ما في الدنيا من لذائذ وشهوات «لا تساوي جناح بعوضة»[2]، فهل يقارَن ما لا يساوي جناح بعوضةٍ بكلِّ هذه القوة وذلك النعيم وهذا المتاع.. وذا الملك الكبير؟!

إنه نعيمٌ مضاعفٌ متجدِّد يجمع كلَّ مظاهر النعيم والدَّعة السابغة.. نعيم تستمتع به النفس، ويستمتع به الحسُّ.. وتجد فيه كلُّ نفسٍ ما تشتهيه من ألوان النعيم.

ولمَ لا؟ وأنتم - أولًا - عباد الله المخلصون.. يا له من تكريم أن يناديك الجليل: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الصافات: ٤٠].. وفي هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم.

وأنتم - ثانيًا - ﴿مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: ٣٥] في الملأ الأعلى.. ويا له من تكريم![3].

هو وحده نعيمٌ وأي نعيم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.

(٢) انظر: الترمذي (٢٣٢٠)، وقال: صحيح غريب، وصححه الألباني بمجموع طرقه. الصحيحة (٦٨٦).

(٣) في ظلال القرآن، ص: ٢٩٨٧ بتصرف.

السباق السباق علك تلحق ركب القوم:

◆ **أيا حبيب الجنة:** فاستبق إلى ذلك المقام.. إذا استبق اللاهون في اللعب والآثام.. وتدارَكِ الليالي والأيام قبل حلول الحُمام.. واحذر أن تكون ممن قال فيهم أستاذ التربية الإيمانية يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: "عملٌ كالسَّراب.. وقلبٌ من التقوى خراب.. وذنوبٌ بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب؟! هيهات.. هيهات.. أنت سكران بغير شراب..

◆ **أيا حبيب الجنة:** ما أكملك لو بادرت أملك..!

◆ **أيا حبيب الجنة:** ما أجلَّك لو بادرت أجلك.. فأنجزت العمل.. قبل حلول الأجل..!

◆ **أيا خاطب الحور الحسان:** ما أقواك لو خالفت هواك..!"[1].

فـا خاطِبَ الحسـناءِ إن كنتَ راغبًا ◆◆◆ فهذا زمـانُ المهرِ فهو المقدَّمُ[2]

والآن.. بعد هذا العيش الرائق، والفصل الشائق.. هل ستعلل نفسك وأنت تعد مهر العروس بطيف العروس يشرق عليك سناها، ويطلُّ عليك بهاها، فتهفو إلى الوصال المرتقب لتقضي لبانات الأرب؟

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ١٤/ ٢١٠ يتصرف.

(٢) البيت من ميمية ابن القيم. حادي الأرواح، ص: ١١.

◆ دونك هتافك وهتاف طيفها.. في انتظار اللقاء الحق:

عَلِّلِيني بالوصالِ المرتقبْ ••• وأزيلي الهمَّ عنِّي والتَّعبْ

وامنحي قلبيَ شوقًا جامحًا ••• يطرد النَّومَ ويشدو بالنَّصبْ

إيه حوراء سَلَبتي مهجتي ••• يا هناءَ الأَسْرِ يا فخر السَّلبْ

ما حياتي دون لُقْياك وهلْ ••• طابتِ الدُّنيا وعنكِ المُحْتَجَبْ

فأَتَتْنِي عند غمضٍ حالمٍ ••• ورَنَّتْ هامسةً (يا لَلطربْ)

يا حبيبَ القلبِ إني هاهنا ••• في اشتياقٍ بات يغلي كاللَّهبْ

جِدَّ في السَّير إلى خالقنا ••• واحذر الآثام دومًا والغضبْ

لا تَعِرْ قلبَك دنيا زُيِّنَتْ ••• وطوت في ثوبها كلَّ الكُربْ

قم من الليل ورتِّل في الدُّجى ••• سورَ القرآنِ.. أَجْرِ المنسكبْ

واغتنم صومًا بيومٍ صائفٍ ••• سوف يحلو الكأس مني والرُّطبْ

ردِّدِ الأذكارَ في أوقاتها ••• واسْرِ بالرُّوح ولا تخشَ العتبْ

وأَطِلْ ذكرًا لنا إنَّ الهوى ••• يمنعُ الغَمْضَ ويعلو بالرُّتَبْ

يا حبيبَ القلبِ هذا مهرُنا ••• وغدًا ألقاك يا فوزَ الطَّلبْ[1]

(١) لحادي الركب: عبد الرحمن العديني.

المشهد الرابع

أيها الصابرون:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

أُبَّهة الطعام وتحف الهدايا تتناوب المجيء إلى الكرام:

◆ **طابت الجنة وطاب سكنها.. فيا جناح الشوق احملني إليها بطاعة أتفيأ فَنَنها..**

واشتهيت الطعام فإذا رزقك منه تراه يأتيك متى طلبته بكرةً وعشيًا، الفائزون بجنات ربهم ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ [يس: ٥٧] ليس ذلك فقط.. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣١]، رزقٌ يتناوب عليك مجيئه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢]، فهو غير منقطع، ويتفكه معه بفاكهة كثيرة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣]، كل شيءٍ هنا معدٌّ للتناول بلا كدٍّ ولا مشقَّةٍ.. ورزق العشاء يختلف عن رزق الغداء، وهكذا ترى النعم تتجدَّد وتتلوَّن عليكم؛ لتزدادوا تنعمًا وغبطة، ليس لأن هناك ليلًا يُرى إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على البكور، وتأتيكم طرف الهدايا من الله تعالى مما لا يمكنكم الإحاطة بتمنيه، وعندما تأتي الهدايا تدخل عليكم الملائكة من كلِّ باب تسلِّم عليكم سلام ذوي الوجاهة الرفيعة عند ربهم:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤]..

هنالكم الملك الموطَّد، والفوز المؤكَّد، والنعيم المخلَّد.. والمجد الشامخ، والشرف الباذخ..

تمتع بأبهة الخدمة، وطيب المقام، ولذة الطعام:

وأنت في بُحْبُوحَة قصرك أو في سرير ملكك أو في غرفتك، أو.. وأنت تتمشَّى في بساتينك، أو تقضي بعض الوقت في جلسةٍ ممتعةٍ أمام الجداول المنبعثة من أنهار الجنة.. حيث البساتين والرياض النضرة التي تجري من تحتها الأنهار، وترفرف حولها الأطيار، وتسجع بأعذب ألحان الأوتار.. وأنت في أيِّ مشهدٍ من هذه المشاهد مستأنسًا لحديث أصحابك، أو مستمتعًا بالخلوة بأهلك.. ترى من أُبَّهَة الخدمة الجارية عليك ما لم يخطر لك على بال، بل ولا لملكٍ من ملوك الدنيا.. إذ ترى أهل الجنة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، فلك في الجنة أطعمةٌ وأشربةٌ، يطاف بها عليك في صحاف ذهب وأكواب ذهب[1].

كلُّ صحافك وآنيتك من ذهب.. جاء يوم جزاء الحسنى.. كم امتنعت من أن تستعمل الذهب آنية في دنياك ابتغاء وجه ربك، فأعقبك الله بأعظم الذهب في آخرتك..؟ فدونك فدونك ما هو أعظم وأفخم، وأجزل وأجمل، وأبهى وأحلى.. مما تقرُّ به عينك ويسر فؤادك..

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٦/ ١١١.

مطاعمُ ألوانٌ وأشكالٌ، وجمالٌ يتلوه جمالٌ

هاهم أولاء غلمانك المخلَّدون الذي يسيرون من حولك كأنهم لؤلؤٌ منثور، وأنت بينهم كالملك المتوَّج.. وهم في خدمتك يتنافسون، وإلى تلبية رغباتك يتسابقون.. يطوفون بصحاف الذهب وأكواب الذهب، عليها ألوان الطعام والشراب، وفي كلِّ واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبتها، وأنت تأكل من آخرها كما تأكل من أولها، لا تمل ولا يعتريك ما يعتري الشبعان من الامتلاء الذي يمنعه من التمتع والتلذُّذ، ثم تراك تجد طعم آخرها في اللذة كما تجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضًا، ولا ينسي بعضه بعضًا، ويراح عليك بمثلها، وتصور نفسك وقد دعوت لذلك صحبك وأهل أنسك، ثم تصوَّرْ نفسك تتناوله في حديقةٍ من حدائقك الغناء مع أهلك وأحب الناس إليك أو مع حورك ونسائك، وأنتم تُشَنِّفون آذانكم بخرير المياه وتغريد الطيور والأصوات الحسنة العذبة المعجبة، والتبجيلات المفخمة تتكرر عليكم تقول: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

عندها تذكرتَ الوعد الحق في الدنيا قد صار ماثلًا في الآخرة وكُلَّمَا رأيت نعيمًا جديدًا بادرت تقول: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، هذا الذي وعدنا به في الدنيا، وجرى على لسانك ترتيل الوعد الذي سمعته في الدنيا، فترنمت تقرأ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فجرى على لسانك تسبيح الغفور الشكور.. شكرًا وحمدًا.

وعندما تتناول شيئًا من أعاجيب الثمار أو الطعام بادرت تقول لصحبك من حواليك، أو لزوجك وأهلك في مجلس أنسك: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] في الجنة، لأنكم ترزقون أولًا ثم ترزقون به ثانيًا، ويدار عليكم تباعًا بألوان المطاعم وأصناف الفواكه، فإذا أُتيتم بطعامٍ وثمارٍ في أول النهار فأكلتم منها، ثم أُتيتم منها في آخر النهار قلتم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] يشبه بعضه بعضًا في المنظر ويختلف في الطعم، كما تشبه بعضها بعضًا في أنها كلها "خيار لا رذل فيها" ولا رديء، ولا فاسد يغر بمنظره لأول وهلة، "وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه، لأن فيها خيارًا وغير خيار"(١)، فليس أوله خيرًا من آخره، بل أوله مثل آخره وآخره مثل أوله، فهو خيار كلُّه يشبه بعضه بعضًا(٢).

وتعجبتم من اختلافه عن طعام الدنيا مع أنه يشبهه في الخلقة والشكل، فقلتم تاراتٍ أخر: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] على وجه التعجب، وأنى له أن يشبهه تمامًا، و«ليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنة سوى الأسماء»؟ فكأنكم تعجبتم لما رأيتم من حُسْنِ الثمرة، وعِظَم خلقها(٣).

واجتمع لهذا كلِّه في هذه الصورة: جمال الولدان المخلدين الطائفين، وجمال الجنان، وجمال القصور والعمران، وجمال الأثاث والخِلَّان، وتوهُّج جمالك،

(١) انظر: تفسير القرطبي ١/ ٢٤٠.

(٢) حادي الأرواح ص١١٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ١/ ٢٤٠.

وبريق جمال نسائك الخيرات الحسان.. فأيُّ منظرٍ من ذلك هو الذي يطغى عليك حبُّه والالتفات إليه أكثر؟

تجمَّع ذا الجمالُ فكلُّ شيءٍ ... جمالٌ في جمالٍ في جمالِ

فلا تعجبْ لآلاء عِظامٍ ... وأفضالٍ لربِّك ذي الجلالِ

وخُذْ ما شئتَ في حمدٍ وشكرٍ ... إذا صدر الكمالُ من الكمالِ[1]

أواني الطعام: أكواب فضة طائفة، وصحافٌ من ذهب دائرة

وأنت في متكئك، أو في قيامك وتلذُّذِك بالمشي في أرجاء جنانك ورحاب قصورك وأفنانك، يطاف عليكم ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]، يدور عليكم الولدان المخلدون ليعرضوا عليكم الشراب والأكل بآنيةٍ من فضة، ومثلها صحافٌ من ذهب، لكن تذكَّرْ أيضًا عجز الكلمات، فليس في الدنيا شيءٍ مما في الجنة إلا الأسماء، فما في الجنة أشرف وأعلى وأسمى وأنقى، وبالصحاف الدائرة والأكواب الطائفة يطيب المجلس ويحلو المتكأ.

وحانت منك رغبة في تناول الكوب فأخذك جماله وصفاؤه وحسن شكله وبهاؤه، حتى لربما أشغلك عن الشرب منه؛ إذ تراه في صفاء القوارير وبياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج، وهي من فضةٍ مع ذلك المزاج[2].

(١) الأبيات للدكتور: سعيد بن دحباج -وفقه الله-.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٠.

وراعك ذاك الصفاء لأكواب الفضة؛ إذ هي شفافةٌ يرى ما في باطنها من ظاهرها، فإنه ليس في الجنة شيء إلا قد رأيت في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة[1]، فإنك لو أخذت فضةً من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها أرق وأدق ما تكون لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة من الفضة، ولكنها فضة كالزجاج.. يطيب لمرآها المزاج.. ويملأ العين منها سرور وابتهاج..

وبعد هذا الاستمتاع في النظر إلى الأكواب عمدت إلى النظر إلى محتوي الأكواب من أنواع الشراب، وقد هفت نفسك لِلَثْمِ الكوب من صفائه، فعجبت كيف أن الأكواب ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٦]، فقدرها لكم السقاة الذين يطوفون بها عليكم، فأتوا بها على قدر رغبتكم واستمتاعكم والْتِذاذِكم بغير زيادة ولا نقصان، وذلك ألذ وأشهى، وترى الأقداح عند بعضكم زاد شرابها، وعند بعضكم نقص، وذلك لاختلاف رغباتكم في الشرب، فهي لا تفضل عن الري ولا تنقص منه، فقد ألهمت الأقداح معرفة مقدار استمتاع المشتهي، حتى تغترف بذلك المقدار.. كما أنهم ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان: ١٦]، فجاءت على قدر كف الواحد منكم[2]، فلا هي بالكبيرة في الأحجام ولا الصغيرة، بل هي مقدرة ليلطف تناولها، ويحسن تعاطيها..

أيا عباد الله: ذلك لكم إيناسًا وتكريمًا، وإعلانا للفضل وللقرب من الجليل سبحانه.

(١) المراد رأيت ما يشبهه على هيئة ما..كالأسماء..وإلا فالجنة لا تقارن بها ملاذ الدنيا. والأمر للتقريب.

(٢) الطبري ٢٤/ ١٠٧.

ثمر الجنان.. وفيء الأفنان يتبعانك أنَّى دعوتهما.. فهما لك في كلِّ حالٍ كظلٍّ دان:

وأنت في مُتكَئِك في إحدى الجنان مع صحبك تتحادثون أو مع أهلك تلعبون، رغبت في أن يمتد عليك ظلٌّ من ظلال الجنة يضفي عليك نوعًا من الاستمتاع الجديد، فترى الظِّلال تأتيك حيث رغبت، فالظِّلال دانية عليكم ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]، أكمل المشهد المثير للذة والاستمتاع: ففي ذلك المتكأ ذللت قطوفها تذليلًا، تلتفت إلى الثمار الشهية والفواكه الرخية، فتحب أخذ شيءٍ من قطافها تلذذًا بأكلها، أو تفكهًا بمناولة زوجك بجوارك، أو راغبًا في التفكُّه بالنظر إليها وتقليبها، فترى القطوف تتجه نحوك بِذِلَّة، وتضع نفسها في يديك في استجابةٍ تامة، نعم! فقد ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]: سُخِّرَتْ لك قطوفها وثمارها تسخيرًا، فإنك وأنت قاعدٌ أو وأنت مضطجعٌ لا يرد يديك عنها بُعْدٌ ولا شوكٌ، بل إن قمتَ ارتفعت لك، وإن جلست تدلَّت عليك، وإن اضطجعت دَنَتْ منك فأكلتَ منها، أو تفكَّهت بها، وإذا هممت -مجرد همٍّ يا ولي الله-أن تتناول من ثمارها تدلت إليك حتى تتناول منها ما تريد..

وعندما تذلل لك قطوفها ويسهل لك تناولها تراها تدنو منك، فتبرز لك من أكمامها، وتخلص لك من نواها[1]، ثم تتدلى من أعلى غصنها سامعةً طائعةً، ومنادي الحق ينادي يخبرهم ويخبر عنهم: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤].

(١) انظر: تفسير القرطبي١٩/ ١٣٨..هكذا قال، والظاهر أنه لا يوجد نوى في الجنة.

ولا تسل عن لذائذ الطيبات وكرائم الهبات والصلات وأنواع الفواكه وألوان الثمرات.. فإنك ترى في الجنة ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ [الرحمن: ٥٢]، ففيها مثلًا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن: ٦٨]، عَبِّرْ لنا يا حبيب الجنة عما ترى من ألوان الفواكه وأطايب الطعام، فماذا يمكنك أن تقول؟ لعلك وأنت مبتسمٌ مندهشٌ لا تستطيع التعبير عما تراه إلا بقول ربِّك جل وعز ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥]، وزاد ربُّك عز جاره فأعطاهم شيئًا أعظم من كلِّ هذا النعيم فقال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥] لذنوبهم.. أيارب ذلك ما نبغي.. ذلك ما نبغي..

◆ **أيا خاطب الجنة:** ماذا تريد أكثر من ذاك؟ إذا ذُلِّلت القطوف ودَنَتِ الظِّلال، فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال!.

◆ حبذا اللهو مع الأحباب.. ودوران كؤوس الشراب: ◆

بعد دوران أصناف الفواكه التي ليس لها انقطاع.. ولا عن مجالسكم امتناع.. ولا عن موائدكم ارتفاع.. ربما اشتاقت النفوس لقرع الكأس بالكأس بمعتقة طيبة الأنفاس، فأخذ مناديهم يسجع لبعض الولدان:

الْهَمَّ ولِّى هاتِها يا ساقي ◆◆◆ مُشتاقةً تسعى إلى مُشتاقِ

وإذا كانت خمرة الدنيا ما تزال سيئة الصورة منظرًا ومخبرًا عند ذوي العقول، فدونك صورةً من عجائب الالتذاذ بخمرةٍ صافية.. تطرب لها النفوس حقًّا، وتعشقها القلوب بدون استثناء صدقًا، ولكن أيا حبيباه: انتظرها في الجنة ولا تعجل

عليها والتشبه بأهلها في الدنيا.. دونك هذه الصورة الممتعة فاستمعها معلنًا هيامك بها: لما طاب التمتع طاف عليكم الولدان المخلدون بأنواع الكؤوس، وتسابقوا إليكم بما يبهج النفوس، وترى أهلك معك وهم ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان: ١٧] تسقون الخمر في الإناء ممزوجًا بالزنجبيل، يطيب لكم رائحته، ويُجَمِّلُ ذائقته، ويجذب إليه اللسان جذبًا..

فتارةً يمزج لهم الشراب بالكافور وهو باردٌ، وتارةً يمزج بالزنجبيل وهو حارٌ ليعتدل الأمر أحيانًا، وأحيانًا ليتم الالتذاذ بالنوعين.. والكافور عينُ ماءٍ في الجنة، فالخمر تمزج للأبرار بالكافور، وتختم بالمسك، وترى الكافور ظاهرًا في ريحها؛ إذ تطيب الخمرة بالمسك والكافور والزنجبيل، فشاهد هذا المشهد الرائع كاملًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥].

هاتِها صرفًا رحيقَ السَّلسبيلْ ... أو فشبها من مذاق الزَّنجبيلْ

في ظلال الخُلد دارت بينهم ... يتعاطاها خليلٌ لخليلْ

يا لخلٍّ حُسْنُهُ أَسْكَرني ... أحور العينين ذي خدٍّ أسيلْ

هِمْتُ لا أدري بكاساتِ الهوى ... أم تراني هِمْتُ بالطَّرفِ الكحيلْ[1]

◆ **أي خاطب الجنة وحبيبها:** وعندما تصف ذلك بالكافور فيتراءى لك عبق

(١) الأبيات للدكتور سعيد بن دحباج -وفقه الله-.

كافور الدنيا أو بالزنجبيل، فاذكر أن ذلك بسبب أننا أسرى الكلمات التي نشاهدها ونألفها، وإلا فهو ليس بكافور الدنيا، ولكنْ سمَّى الله ﷻ ما عنده بما عند أهل الدنيا حتى تهتدي لها القلوب، فلا تخلط ما تسمع بما ترى في الدنيا، فإنما هي أوصافٌ للتقريب، يعلم الله ﷻ أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب.

مخرج الطعام.. نعيم إلى نعيم:

نعم! ألا تنظر إلى صحبك ونفسك وأنتم تأكلون فيها وتشربون، ولا تتفلون، ولا تبولون، ولا تتغوطون، ولا تمتخطون.. لربما تساءلت وقد انفتحت أساريرك متعجِّبًا: فما بال الطعام..؟! كيف مخرجه حتى نستلذ بطعامٍ آخر، أو يكون إخراجه كما في الدنيا أذى في ذاته؟! فانظر ما حال طعامك الذي أكلت بعد أن أكلت، وحتى تعود بطونكم إلى حالها فتشتهي الأكل من جديد، لقد تحوَّل إلى «جُشاءٍ ورَشْحٍ كرَشْح المسك»[1]، فبعد الأكل يسقيكم ربكم ﴿شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: ٢١]، تطوف عليكم به الولدان المخلدون.. أُتِيتُم في آخر ذلك بالشراب الطهور فتضمر لذلك بطونكم، ويفيض عرقًا من جلودكم، ولكنه عرقٌ أطيب من ريح المسك[2]، فإذا شربتم الشراب المذكور بعد أَكْلِكم طهَّركم، وصار ما أكلتموه وما شربتموه رشح مسك، وضمرت بطونكم.. لتلتذوا بطعامٍ جديدٍ، وشراب فريد.

---

(١) انظر: مسلم (٢٨٣٥).

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ١١٢.

وترتيل الوصف يلهبُ الأسماع المشتاقة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: ٢١]..

ومنادي الحق ينادي عليكم بالتعظيم والتبجيل والتنعيم والتدليل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وهناك لا تملكون أنفسكم وأنتم ترون هذه النعمة من التسبيح والتحميد، بل تلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما تلهمون النَّفَس[1]، وألسنتكم ما تفتر أن تردِّد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

إنه الشعور بالنعمة؛ لأنها ليست كَكُلِّ نعمة.. إنها الجنة..! إنها الجنة أيها المشمرون فأين أنتم؟

اللهم إني أسألك الجنة، اللهم إني أسألك الفردوس وما قرب إليها من قول وعمل.

(١) انظر: مسلم (٢٨٣٥).

المشهد الخامس

كالجمال المنظور..
إليك الجمال المسموع

الأصوات الطيبة.. تطرب الوجدان، وتوقظ الوَسْنان، وتأسر الإنسان:

وتتحرك في أرجاء مملكتك في جنتك العالية في المكانة الرفيعة في القدر والمقام؛ إذ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون[1].

تعجب من ذلك ففوق شهوة النفس يوجد التذاذ العيون، في المضمون الكمال، وفي الشكل الجمال.. فهاهي المشتهيات على أطيب مثال.. فهل جدَّ في تحصيله العمَّال؟

تتحرك وأنت قد بِتَّ راضيًا عن عملك الذي عملته في الدنيا، راضيًا عن ثوابه الذي أعطاك ربُّك ﷻ، وماذا تبتغي أكثر؟ فقد أعطاك في الجنة هذا الملك العظيم الذي لم يكن يخطر على بالك أن تُعْطَى عُشْرَ عُشْرِه، أو أن تستحقه في مقابل العمل اليسير الذي قدمته في الحياة الدنيا، ولكنه ربُّك الجليل يجزي على اليسير بالكثير ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤]، ومنادي الحق ينادي: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

(١) تفسير القرطبي ٢٠/ ٣٢.

ولربما تساءلت وأنت تمر بجنانك وجيرانك وأسواق الجنة ومجمعاتها، مع كثرة العاملين في مملكتك والداخلين من زوارك وصحبك وضيفانك: هل ستسمع مع هذا الاختلاط شيئًا من اللغو يزعجك.. ولو قلَّ؟

◆ **ويأتيك الجواب:** ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١﴾ [الغاشية: ١١]: كلمةً لاغيةً، فلا تسمع فيها كلمة لغو، بل ولن تسمع حتى شيئًا من رفث التكلُّم ولا هجر القول، مما تتقزز منه النفوس الراقية ذات الأخلاق العالية، فكلُّ ما تسمعه هو كلامٌ مرضيٌّ رفيعٌ رائق، ولفظٌ جميل شائق فائق.. يشرح الصدور وينورها، ويسعد القلوب ويؤنسها، ويشنف الأسماع ويطربها..

◆ **يا نضر الوجه:** ما أكثر ما كنت تتأذى من لغو الكلام ورفث القول في الدنيا في بيتك، أو في سوقك، أو في طريقك! فأحيانًا تسمع كذبًا وبهتانًا وكفرًا بالله ﷻ، وأحيانًا تسمع كلامًا باطلًا يطفو منه الإثم، وأحيانًا تسمع شتمًا وسبًّا، وأحيانًا كنت تسمع معصيةً أو ما يؤدي إليها، وكثيرًا ما كنت تتأذى بسماع الحالف يحلف بكذبٍ، وأقل ذلك أن تسمع كلمة لغوٍ يظهر منها الفحش أو سوء الأدب.. ذاك كان في ماضي الأزمان.. أما في الجنان فلا تسمع إلا الحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم، وشكر الديان، والجميل من القول يخاطب بعضهم به بعضًا.. إنهم أصحاب الجنة: أُدخلوا الجنة، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج: ٢٤].

◆ **أيا نضر الوجه:** شَنِّفْ سمعك لأعذب الكلام الذي تلقاه في كل أرجاء الجنة، فإنك تجده إما أن يكون التحية فيما بينكم -معاشر أهل الجنة-، وتحيتكم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ [يونس: ١٠]، وإما أن يكون الكلام الذي تسمعونه من الملائكة الداخلين عليكم، والملائكة حين يدخلون عليكم من كل بابٍ فإنما يرددون ثبوت السلام والأمن لكم، ويعطونكم أجمل عبارات التهنئة والحب:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٤]..

السلام يغلف الجنة بدفئه ونعومته.. يغشيها دائمًا وأبدًا.. سلام يتردد صداه في أرجائها.. غير منقطع ولا منقوص.. هو شعار أهلها.. عنوان خطابهم، وتحية ترحابهم..

وهكذا أنتم لا تسمعون فيها ﴿لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وفي كلِّ مجلسٍ لكم تُلقَّون في أرجاء الجنة تحيةً وسلامًا.. فلا تسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا عابثًا خاليًا عن المعنى، أو مشتملًا على معنى حقيرٍ، ولا خصامًا، فضلًا عن أنك لا تسمع فيها تأثيمًا من كلِّ كلامٍ فيه قبح.. مما كنت تتأذى منه في الدنيا ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: ٢٦]، ولا تجد إلا التسليم منكم بعضكم على بعض في بيوتكم أو في كل ناد، أو طيب القول يهز النفس، ويطرب الفؤاد.

من أصحاب هذا النعيم؟

«إنهم الذين أَعْرَضُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ اللَّغْوِ، وَتَرَكُوا رَائِقَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّهْوِ، وَآثَرُوا الذُّلَّ عَلَى الْغِنَى وَالزَّهْوِ، وَتَيَقَّظُوا لِلأَوَامِرِ مُعْرِضِينَ عَنِ السَّهْوِ، فَأَسْكَنَهُمْ فِي جَنَّتِهِ يَوْمَ زِيَارَتِهِ حَرِيمًا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ [الواقعة: ٢٥].

أَجْزَلْنَا لَهُمُ الثَّوَابَ، وَسَمَّيْنَاهُمْ بِالأَحْبَابِ، وَأَمَّنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَاصْطَفَيْنَاهُمْ لِلْمُخَاطَبَةِ وَالْجَوَابِ، وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ من كلِّ باب، بِبِشَارَاتٍ تُوجِبُ تَقْدِيمًا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ [الواقعة: ٢٥].

تَبْدَؤُهُمْ بِالسَّلامِ، وَتَخُصُّهُمْ بِالتَّحَايَا وَالإِعْظَامِ، وَتَأْتِيهِمْ بِأَنْوَاعِ التُّحَفِ وَالإِكْرَامِ، وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْخُلُودِ فِي دَارِ السَّلامِ، وَقَدْ أَمِنُوا أَنْ يَسْمَعُوا مِنَ اللَّغْوِ كَلامًا ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٦]»[1].

تصوَّرْ ذلك وقارنه بالذل الذي يلقاه أصحاب النار والإهانة التي يتجرعونها مع العذاب الذي هم فيه، حيث يوبخون بالكلام ويُقَرَّعون به، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝١٨١﴾ [آل عمران: ١٨١].

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٥٢).

لا بد أنك اشتقت إلى شيء من الغناء والصوت الشجي، فاسمع ثم احكم:

◆ والآن أيا عاشق الجنة: ماذا نسيت مما تشتهي.. تَذكَّرْ.. أو تريد من يُذَكِّرك؟

هناك تذكَّرت.. تذكَّرتَ شيئًا، فما هو؟ لقد اشتقت لغناءٍ مباحٍ يطربك، وصوتٍ حسنٍ يشجيك ويسليك ويعلي نعيمك، فاسمع ما حواليك مما تشتهي سماعه، فإنه "سماعٌ لم يستمع السامعون إلى مثله!"[1]..

تشتاق إلى الغناء في الجنة، فتطلبه فيجتمع لك فورًا ذووه المتخصصون فيه، فـ(إذا أخذ أهل الجنة في السماع (الغناء)، لم تبق شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت الغناء بالتسبيح والتقديس)[2].. هنا متعة للروح لا يضاهيها شيء من هواجس المفتونين بغناء أهل الدنيا الهابط المذموم، ولا طربهم الدنيء المزعوم..

ويهبُّ المغنون يغنون بأغانيها، والطير بألحانها، وقد قيل: يوحي الله تبارك وتعالى إلى الملائكة عند الترنم بالتسبيح أن جاوبوهم، وأسمعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان، فيجاوبون بألحان وأصوات، فتختلط هذه الأصوات، فتصير رجَّةً واحدةً.

ثم إنك لا بد تشتاق إلى سماع صوت داود عليه السلام الذي كانت تسبح معه الجبال لشدة جمال صوته.. فاطلبه تجده يمجد ربه ﷻ بصوت يغمر الأصوات ويسبقها حسنًا وسبكًا، وتحبيرًا وحبكًا، وحين ذاك تتضاعف اللذة.. وأهل الجنة في ذلك كله:

---

(١) انظر: الطبري ٢٥/ ٩٧.

(٢) انظر: القرطبي١٤/ ١٢.

﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٥][(١)].

ويحلو الغناء ويسحر.. ويدهش ويبهر.. حينما تتصرف بألحانه وتشدو بترانيمه زوجاتك ربَّات العفاف.. وحورياتك من الغيد اللطاف..

يا لـذَّةَ الأسماع في الجنَّاتِ ... بجمال صوتٍ فائق النَّغَماتِ

ذاك الغِناءُ العَذْبُ تُتْحِفُنا بهِ ... في الخالدين حناجرُ الزَّوجاتِ

والحورُ يُطربن السَّماعَ بلذَّةٍ ... مسبوكةٍ من أمتعِ اللَّذاتِ

ويردِّدون بكلِّ صوتٍ ناعمٍ ... نحن اللَّواتي - قد أتى - واللَّاتي

الخالداتُ النَّاعماتُ بجنَّةٍ ... نشدو بها وبأجمل الكلماتِ

لو أنَّ إنسانًا يموتُ بنَغْمةٍ ... من حسنِها ماتوا على النَّغَماتِ

بحفيفها الأغصانُ تُطرِبُ سامعًا ... يغدو حفيًّا سائرَ الأوقاتِ

حتى الطُّيورُ بلحنِها تشدو على ... تلك الحروف بأعذبِ الرَّنَّاتِ

حتى نبيُّ اللهِ داود الذي ... قد أوتي المزمار في الخلواتِ

يأمرْهُ ربِّي أن يُسبِّح هائمًا ... فيصوغُ شادٍ أعذبَ الأصواتِ

فيهيم كلُّ المؤمنين بصوتهِ ... يا حُسنهُ في روضةِ الجنَّاتِ

أما إذا نادى الجليلُ بصوتهِ ... ينسونَ معْهُ سائر اللَّذَّاتِ

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٤/ ١٣، وهذا على تفسير (يحبرون) بسماع الغناء.

ألا تشتهي الخروج للتبضع والترفه في سوق الجنة:

وإذا اشتقتَ إلى متعة التسوُّق مع أُبَّهَة الإيمان وتمام الترفُّه.. خرجت من مملكتك بموكبك وهيبتك متَّجهًا بمراكبك الوطيئة إلى سوق الجنة.. لا تنسَ هنا.. لا تنسَ أيا حبيباه وسل الله ﷻ بعينين دامعتين شوقًا وخوفًا أن يجمعك بأعزِّ أصحابك في ذلك السوق..

أتريد رؤية السوق والتنزه فيه ولقاء الأحبة والترفُّه معهم؟ فانظر إلى أهل الجنة قد خرجوا من بيوتهم في يوم التَّسوُّق، نعم! فإنَّ «في الجنة لسوقًا يأتونها كلَّ جمعة، فَتَهُبُّ ريحُ الشَّمال، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا»[1]، وخرجتَ معهم وازددتَ حسنًا وجمالًا، ثم رجعت إلى أهلك بعد أن ملأت مراكبك بتبضعك.. رجعتَ وقد ازددت حسنًا وجمالًا، وبهاءً وجلالًا، ورجع أصحابك كذلك، وهناك وجدتم مفاجأةً جديدة من مفاجآت التنعم؛ إذ «يقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بَعْدَنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بَعْدَنا حسنًا وجمالًا»، لا تنسَ أيها المشتاق أن أسواق الدنيا ترجع منها وقد ازددت غبارًا وكمدًا ونكدًا، ثم سل الله ﷻ من فضله.. كانت الأسواق في الدنيا مواضع تُنْصَب فيها رايات الشيطان[2].. وهي في الجنان مجامع يُذكر فيها الواحد الدَّيَّان.. ومنتزه يزداد مرتادها من كلِّ خير ويزدان.. رب إني أسألك من فضلك ورحمتك.

---

(١) مسلم (٢٨٣٣).

(٢) ( ) ينظر: مسلم (٢٤٥١).

ويزداد الحسن في جسدك ورائحتك بصورة دائمة كلما خرجت من مملكتك في الجنة إلى أسواقها أو مزاراتها، فإن في (الْجَنَّةِ سُوقَ كُثْبَانِ مِسْكٍ يَخْرُجُونَ إِلَيْهَا وَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهَا، [يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى السُّوقِ، فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ]، فَيَبْعَثُ اللهُ ﷻ رِيحًا فَيُدْخِلُهَا بُيُوتَهُمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ: قَدِ ازْدَدْتُمْ حُسْنًا بَعْدَنَا فَيَقُولُونَ لِأَهْلِيهِمْ: قَدِ ازْدَدْتُمْ أَيْضًا حُسْنًا عِنْدَنَا، فيقولون: [إِنَّا نَجِدُ لَكُمْ رِيحًا مَا كَانَ لَكُمْ إِذْ خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكُمْ]، فتقول زوجاتهم: [لَقَدْ رَجَعْتُمْ بِرِيحٍ مَا كَانَ بِكُمْ إِذْ خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِنَا][1].

الحمد شعارهم، والتسبيح دثارهم:

وأشرفتَ على صاحب القلب المنيب وأصحابه والنعم تزداد وتكثر يومًا بعد يوم وحينًا بعد حينٍ.. نظرتَ إليهم فوجدتهم لا يملُّون أن يردِّدوا لهجة الحمد، كلمةٌ واحدة تختصر لهم شكر ما لا طاقة لهم بشكره.. نعم! فبعد أن عاينوا تلك الأنعم السوافر وتقلبهم في الجنة في ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير لم يملكوا إلا أن يهتفوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]: الذي كان وَعَدَنا على ألسنة رسله الكرام بهذا مما لا يخطر لنا على بال، فأنفذ الآن

(١) "صفة الجنة" لابن أبي الدنيا، ت: سليم (٢٤٧)، وصححه المحقق رحمه الله من روايتين عن أنس ﷺ موقوفًا، وله حكم الرفع.

وعده، هم يستذكرون، ويتذكرون أنهم كانوا يدعون في الدنيا بذلك: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩٤]، والآن.. الآن عيانًا يشهدون أنه قد استجاب لهم، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، استجاب لهم ربهم فهم يتقلبون في جناته، عندها يهتفون ويكرِّرون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: ٧٤]

◆ **هناك سمعتَ صاحب القلب المنيب:**

وسمعتَ المُنيبَ يَحْمَدُ ربًّا ◆◆◆ صَدَقَ الوعدَ قد هدى مَنْ أنابا

"يا هناءَ الدُّخولِ أسعدتَ روحي ◆◆◆ راقَ عيشي بقُرْبِ ربِّي وطَابا"

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: ٧٤]: أين شئنا حللنا، وفي أيِّ مكان أردنا نزلنا، ولأيِّ نعمةٍ اشتهينا وجدنا ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: ٧٤]، فنعم الأجر أجرنا..

ولشعوركم بهذه النعمة العظيمة، وعظم الإحسان الذي أغدق الباري الكريم به عليكم، تلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس[1].

وتسمع عند ذلك ثناء الله ﷻ عليهم مجدَّدًا: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: ٧٤].

والْحَظْ.. أنه أجر العاملين، وليس الكسالى الغافلين:

(١) انظر: مسلم٤/ ٢١٨٠.

امنـعْ جُفُـونَك أن تـذوقَ منـاما ◆◆◆ واذْرِ الدُّموعَ على الخدودِ سِـجَاما

واعلمْ بأنَّـك ميِّـتٌ ومحاسَـبٌ ◆◆◆ يا مَـن على سَخَطِ الجليلِ أقـاما

للهِ قومٌ أخـلـصوا فـي حُبِّـهِ ◆◆◆ فأثابهـم واخْتَصَّهُـم صُوَّامـا

قـومٌ إذا جـنَّ الـظَّلامُ عليهـم ◆◆◆ باتـوا هنـالك سُجَّـدًا وقِيـاما

المشهد السادس

تنعَّم يا صاحب المتاب..
بلقاء أصدق الأصحاب

نداءٌ إلهيٌ للمتقين من الأصحاب والأخلاء والأحباب في يوم الحساب:

ومضينا مع نعيمك يا صاحب القلب المنيب.. فبينما يكون ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧] يتعادون ويتباغضون ويتلاومون، ويتبرأ بعضهم من بعض.، وكلٌّ يدَّعي أن الآخر أغواه، إلا أن فئة المتقين المفلحين غير ذلك.. نعم! ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] لاح النور، وكشف المستور وذهبت هتافات الزيف، واستبانت الحقيقة من الطيف.. فـ"كلُّ صداقةٍ وصحبةٍ لغير الله ﷻ.. فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلا ما كان لله ﷻ، فإنه دائمٌ بدوامه"[1]، واجتمع المتقون من الأصحاب تحت ظلِّ العرش يوم التلاقي.. أظلَّهم الله ﷻ بعرشه كما أظلُّوا أنفسهم بالحب فيه..

وانظر الصورة التكريمية العظيمة التي تنالك وصحبَك المتحابين فيه لا في غيره، المتباذلين فيه لا في سواه.. انظر هنا: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٥.

ينادَون نداء التشريف والإكرام، ويرفعون في أعلى مقام، ويمنحون ألذ وسام.. يقال لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [الزخرف: ٦٨] من عقابي فإني قد أمَّنتكم منه برضاي عنكم..﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾ [الزخرف: ٦٨] على فراق الدنيا.. فإن الذي قَدِمتم عليه خيرٌ لكم مما فارقتموه منها[١].

◆ قَرَّ عينًا يا صاحب القلب المنيب بحبيبك ما دام من المتقين..

فالمتقون هناك تزداد أخوتهم، وتتعاظم محبتهم يوم القيامة وبعدها.. هنا تورق أغصان الحب في الله ﷻ، ويينع ثمره وجناه.. أما يوم القيامة فيجمعهم الله ﷻ على منابر من نور، ويظلهم تحت ظل عرشه؛ إذ قد اجتمعوا في الدنيا على الله ﷻ، وتفرقوا عليه.. فكان جزاؤهم أن يجمعهم الله ﷻ تحت ظل عرشه يُمَتَّعون، بينما الناس في عرصات القيامة يعذبون، وأما أرباب السعادة الفائزون بالسيادة في الجنة يلتقي بعضهم ببعضٍ في الفردوس، حيث ضُمِنَت لهم الراحة الأبدية، ونالهم التكريم السرمدي، حتى يكون لكم أيها المتحابون في الله -كما قال ابن كيسان رحمه الله- شغلٌ عظيمٌ بزيارة بعضكم بعضًا[٢] فبذاك يكون النعيم هو النعيم.. أُنسًا بأحبابكم، وشوقًا لأصحابكم.. فعندما سئل النبي ﷺ: أيتزاور أهل الجنة؟ قال:

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٥/ ٩٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٤٣.

«يزور الأعلى الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلى إلا الذين يتحابون في الله ﷻ، يأتون منها حيث شاؤوا على النُّوق مُحْتَقِبِينَ الْحَشَايَا»(١)

هذه خصوصية لأهل الحب في الله ﷻ.

لله هذه الخلة الطاهرة..! كانت للمتحابين بها في الدنيا جَنة قبل الجَنة.. وهي في الآخرة أنس لأهلها وجُنَّة.. ولذا قال الله ﷻ عن أهل طاعته:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء: ١٣]

ثم قال عقبها عن أهل المعصية:

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[النساء: ١٤]

فإن الجنة لما كان لأهلها فيها اجتماعات، وأنس باللقاءات والزيارات، جاء قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ اعتبارًا بهذا المعنى الحاصل في الجنة من الاجتماع.. والمؤانسة والاستمتاع. ولما كان أهل النار على الضد من ذلك.. وكلٌّ واحد منهم قد أحاطت

(١) الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٤ (٧٩٥٦)، وفيه جعفر بن الزبير، متروك الحديث، و ورواه أبو نعيم في صفة الجنة ٢/ ٢٥٩ من طريق الطبراني عن جعفر بن الزبير وعن بشير بن نمير وكلاهما متروك الحديث. ينظر: سؤالات أبي داود للإمام أحمد، ص: ٢٥٥، والصحيح أنه موقوف على حميد بن هلال كما ورد في صفة الدنيا (١٨٦)، بإسناد صحيح من دون زيادة (إلا الذين يتحابون...). ينظر: الآثار المروية عن أئمة السلف في العقيدة من خلال كتب ابن أبي الدنيا «جمعًا ودراسة» (١١١٣).

به المهالك.. لا ينجده قريب ولا يؤنسه حبيب.. حتى يقول أحدهم إنه ليس في النار إلا هو، جاء قوله: ﴿خَٰلِدَا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]؛ اعتبارًا بهذا المعنى[١].

مشهدٌ من مشاهد الصداقة الحقة الطاهرة:

أيا صاحب القلب المنيب! لعلك أُخبرت وقد استقرَّ بك المقام في جنات المأوى عن قصة حبٍّ صادقٍ في الله ﷻ جمع بين خليلين مؤمنَيْن في الدنيا[٢]، فمات أحدهما، فلما لقي ربه ﷻ ذكر ما كان بينه وبين خليله من تحابٍّ عظيمٍ في الجليل جلَّ شأنه.. كيف كانت أوقاتهما تذكيرًا لبعضهما بحقائق الإيمان ودعائم الإسلام، فلما تذكَّر ساعات الصفاء.. وأوقات الإخاء.. اشتعل قلبه.. فقام يناجي ربه ﷻ، ويدعو لصاحبه وهو في الآخرة وذاك في الدنيا.. يقول:

يا ربِّ إن أخي فلانًا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك.

يا رب فلا تضله بعدي، واهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني.

أحْبابَنا إنِّي على ... حُسنِ الوَفاء لكُمْ مُقيمُ
أنا ذلكَ الصَّبُّ الذي ... أبدًا بذكركمُ يهيمُ

(١) ينظر: الإفادات والإنشادات، الشاطبي، ص: ١٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٥/ ٩٤، موقوفًا عن علي ﷺ.

يهتـزُّ مـن طـربٍ لكـمْ ... ولربمـا طـربَ الحكيـمُ

فَعَلَيكُـمُ منّـي الـسّلامُ ... فوُدُّكـمْ عنـدي سـليمُ[1]

فلمـا مـات خليلـه المؤمـن جمـع الله ﷻ بينهمـا ثـم قـال لهمـا: لِيُثْنِ أحدكمـا علـى صاحبـه.

فقـام الأول ليثني علـى صاحبـه، ويسـبق بذكـر شـمائله فقـال: يـا رب إنـه كان يأمـرني بطاعتـك وطاعـة رسـولك، ويأمـرني بالخيـر، وينهـاني عـن الشـر، ويـخبرني أني ملاقيـك..

كلمـاتٍ حـبٍ صادقـة فاحـت عبيـرًا مـن فـمٍ طاهـر، ووفـاء كريـم يشـيد بالمفاخـر بثنـاء عاطـر، فـكان نتيجـة الثنـاء علـى صاحبـه أن يقـول الله ﷻ: نعـم الخليـل! ونعـم الأخ! ونعـم الصاحـب!

أأنـزفت هـذه القصـة فـؤادَك الولـوع.. فاسـتثارت عينيـك بالدمـوع؟ أتركـت وأنـت تقرؤهـا الهجـوع، يتجـافى جنبـك عـن المضاجـع.. وأنـت تتذكـر أعـز صحبـك ممـن قبضهـم الله ﷻ إليـه قبلـك..

◆ **لعلـك تتألـم مناديًـا:** أيـا لهفتـاه مـا قالـوا ومـا قيـل لهـم! وفوجئـت بهـم قـد جمعـك الله ﷻ بهـم في مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر.. في مقعـد صـدقٍ في الآخـرة اجتمعتـم.. وبحبِّـه التقيتـم.. كمـا افترقتـم.. لقـد اجتمعتـم في مقعـد صـدقٍ مـن الإيمـان والأخـوة في

(١) الأبيات لبهاء الدين زهير. ينظر: ديوانه، ص: ٤٤٤.

الدنيا، حتى «لو أن رجلين تحابَّا في الله أحدهما في المشرق والآخر في المغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول الله: هذا الذي أحببته فيَّ»[١].

أمـا والذي إن شاء لم يخلق النَّوى ◆◆◆ لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي

أخيَّ رعاك الله في كلِّ وجهةٍ ◆◆◆ توجَّهتها ما بين شرقٍ إلى غربِ

توهَّمتُ منك الشَّوق حتى كأنني ◆◆◆ أناجيك من قُربٍ وإن لم تك قربي[٢]

وفي زيارتك لأحبابك طاب الأنس، وأشرق المجلس ببهجته، وأخذتم مقاعدكم تارةً في الحدائق الغناء، وأخرى في النوادي المزدانة، وثالثة في الدواوين المزخرفة.

السُّرر المرفوعة المتحركة.. منظرٌ لا يُنسى:

وأخذتم مقاعدكم، وكانت مقاعدُكم مكمنَ الراحة والسرور.. أَنْعِمْ بها من متكأ راحة..! فإنها ﴿سُرُرٌ﴾ [الغاشية: ١٣] فلكلِّ واحدٍ منكم سريرٌ يتكئ عليه، والسرير كرسيٌّ طويلٌ متسعٌ، يجلس عليه المتكئ والمضطجع.. ولكن لم يكن اختيار السرير ليكون موضع الراحة لكم عبثًا، فإنه مأخوذٌ من السرور، فهو للمترفهين من ذوي النعم، أنتم الآن تتكئون على سرر المسرات، ونظرتم إليها فإن نعيمكم لا يُمَلُّ النظر إليه.. نظرتم إليها فإذا هي مصنوعةٌ من ذهبٍ مكلَّلةٌ باليواقيت والزَّبَرْجَد والدُّرِّ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٥.

(٢) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا ص١٤٠، والحديث تفصيلٌ لما تثبته الآيات والأحاديث الصحيحة لذا أثبتناه.

ثم نظرتم إلى ارتفاعها عن الأرض فإذا هي ﴿مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣﴾ [الغاشية: ١٣]، فأنتم بها في رفعةٍ حسيَّةٍ، وعلوٍّ معنويٍّ ونفسيٍّ.. وكرامةٍ تامَّةٍ..

وهي مع ذلك سُرُرٌ مَّوۡضُونَةٞ أي: سُرُر منسوجة، قد أدخل بعضها في بعض، كما توضن حِلَق الدِّرع[1]، ومَّصۡفُوفَةٞ أي: موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًا، فهي منسقة يجدون فيها لذة التجمُّع بإخوانهم في هذا النعيم[2].. ويقرب صورة هذا صورة المجالس والمقايل الدنيوية العظيمة الممتدة.. لكن ما في الجنة أبهى وأفخم، وأعظم وأضخم..

وتركتم النظر إليها بعد أخذ مقاعدكم، ونظرتم إلى ما هو أجمل منها: إلى أنفسكم.. وتُقَلِّبُ طرفك لترى وجهك في وجه أخيك من شدَّة الصفاء، وترى نفسك في المرايا المنتشرة.. فما ترى إلا وجوهًا نضرة ضاحكة مستبشرة، ثم تعيد النظر في وجوه أصحابك، فماذا ترى؟ إنَّك لا ترى في ذلك الوجه إلا الجمال المحض، والصفاء الخالص.. فـ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين: ٢٤]، ترى بهجة النعيم، وغضارة النعيم، ونور النعيم.. فوجوهكم مزهرةٌ، وأفواهكم ضاحكةٌ، وأفئدتكم مستبشرة.

فلربما سبقت منكم البسملة وأنتم تتأملون فيما آتى الله ﷻ بعضكم بعضًا من

(١) ينظر: الطبري ٢٣/ ٩٨.

(٢) ينظر: الطبري ١٧/ ٦٥، في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٦.

جمـال.. بَسْـمَلْتم ودعوتـم.. وحمدتـم:

فيا حبذا ذاك الحبيبُ المُبَسْمِلُ..

الله!.. الله! إنها وجوهكم أيها الفائزون:

وُجُـوهٌ طَـالَ مَـا غَسَـلَتْهَا دُمُـوعُ الأَحْـزَانِ، وُجُـوهٌ طَـالَ مَـا غَبَّرَتْهَـا حُرُقَـاتُ الأَشْـجَانِ، وُجُـوهٌ تُخْبِـرُ عَـنِ الْقُلُـوبِ إِخْبَـارَ الْعُنْـوَانِ، حَرَسُـوا الْوَقْـتَ بِالْيَقَظَـةِ وَحَفِظُـوا الزَّمَـانَ، وَشَـغَلُوا الْعُيُـونَ بِالْبُـكَاءِ وَالأَلْسُـنَ بِالْقُـرْآنِ، فـإذا رَأَيْتَهُـمْ يَـوْمَ الْجَـزَاءِ رَأَيْـتَ الْفَـوْزَ الْعَظِيـمَ، ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: ٢٤].

وُجُـوهٌ مَـا تَوَجَّهَـتْ لِغَيْـرِي وَلا اسْـتَدَارَتْ، وَأَقْـدَامٌ إِلَـى غَيْـرِ مَـا يُرْضِينِي مَـا سَـارَتْ، وَعُـزُومٌ لِغَيْـرِ مَرْضَاتِي مَا ثَارَتْ، وَقُلُـوبٌ بِغَيْـرِي قَـطُّ مَا اسْـتَجَارَتْ، وَأَفْئِدَةٌ بِغَيْـرِ ذِكْـرِي مَـا اسْـتَنَارَتْ، وَلَـوْ رَأَتْ عُيُـونُ الْغَافِلِيـنَ مَـا أَعْـدَدْتُ لَهُـمْ لَحَـارَتْ مِـنْ فَضْـلٍ عَظِيـمٍ وَمُلْـكٍ جَسِـيمٍ، ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: ٢٤].

أَشْـرَقَتْ وُجُوهُهُـمْ فِـي الدُّنْيَـا بِحُسْـنِ الْمُجَاهَـدَةِ، وَتُشْـرِقُ وُجُوهُهُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ بِالْقُـرْبِ وَالْمُشَـاهَدَةِ، أَشْـرَقَتْ وُجُوهُهُـمْ فِي اللَّيْـلِ بِنُـورِ السَّـهَرِ، وَتُشْـرِقُ غَـدًا بِمُشَـاهَدَةِ الْحَـقِّ إِذَا ظَهَـرَ، أَشْـرَقَتْ وُجُوهُهُـمْ فِـي الدُّنْيَـا بِجَرَيَـانِ الدُّمُـوعِ عَلَـى الْخُـدُودِ، وَتُشْـرِقُ غَـدًا فِي جنان الخلود، فإذا رَأَيْتَهُـمْ فِي سُـرُورٍ مَـا فِيهِ مَـا يُضِيـمُ، ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطففين: ٢٤][1].

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٣٤.

وأنتم في جميع أحوالكم متقابلون.. لا يستدبر بعضكم بعضًا.. بل أنتم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]، متواجهين على أشرف أحوال الاجتماع، تجتمعون وتتنادمون.. وفي رحاب الجنان تتزاورون وتتواصلون..

والاتكاء له لذته فهو مرةً يكون بالاضطجاع، وذلك مع أهلك وأزواجك من الحور العين، وتارةً يكون بالتمرفق أو بالتربُّع أو بالتمكُّن في الجلوس، وذلك مع أهلك وولدانك وصحبك وخِلَّانك.

لربما قلت: كم من التعب قد أصابني به التواصل والتزاور في الدنيا، ولا بدَّ من تعبٍ في ديمومة التواصل ولو قلَّ، فماذا يكون حالي هنا؟

ويأتيك الجواب: بنداء الحق العلوي ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، فأنتم على حالتكم هذه من الاتكاء، أو من الارتفاع إلى السرر العالية، أو من التواصل المتبادل، أو من السعي إلى ما تشتهون.. لا يمكن أن يمسَّكم التعب.. لا يمسُّكم مجرد مسٍّ[1]..

◆ **إنها الجنان** موطن الراحة التامة الدائمة.. ومستقر النعمة الحاضرة القائمة.. فلا لغوب ولا نصب، ولا كدٍّ ولا تعب..

(١) انظر: روح المعاني ١٤/ ٥٩.

انظر حواليك: زينةٌ تحفُّ بكم من كلِّ حدبٍ وصوب.. فتشغلكم عن بعضكم لوقتٍ:

ويزين منظر مجلسكم رؤية عَينٍ جَارِيَة، تجري بالماء المتدفِّق الرقراق الذي يجري في غير أخاديد، والذي حاول البشر تقليد شيءٍ لا يذكر بجانبه في الدنيا عن طريق النوافير، والعين الجارية تجمع الجمال إلى العذوبة والصفاء والمتعة؛ جمال الحركة والتدفق والجريان، والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض! وهو متعةٌ للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي الذي يتسرَّب إلى أعماق الحسِّ.

وبينما ترى حولكم العين الجارية في غير أخدود.. ترونها وأنتم في مكانكم على سُرُرٍ مَّرفُوعَةٍ، والطير في تغريدها ولهوها تروقكم بهجتها، والغلمان يطوفون بكم قيامًا وقعودًا للخدمة والزينة، ومنادي الحق ينادي:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]

لا ينقطع الانقطاع الذي كان أهل الدنيا يعانون منه.

ويزيد المنظر بهاء وكمالًا وحسنًا وجمالًا ما اصطف بين أيديكم من أنواع الأكواب الموضوعة من الأباريق والأواني، وأدوات الضيافة هنا تشغل بجمالها ونعيمها عن غيرها، فإن الإبريق لم يُسمَّ كذلك إلا لشدة بريقه ونضارته وظهور صفائه..

وفي متكئكم تتفكهون بأكواب موضوعة ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [الغاشية: ١٥]: وسائد مصطفة هنا وهناك.. كلٌّ واحدةٍ إلى جنب الأخرى، على سرركم وعليها تتكئون، ويجمل المنظر وأنتم تهزون الرؤوس من العذب اللُّجين الذي يُملأ في الكؤوس..

كُؤوسٌ كما تَهْوى النُّفوسُ كأنَّها ... بنيلِ الأمانِي والمآربِ تُمْزَجُ

كأنَّ القَنانِي والصَّوانِي لناظِرٍ ... نُجومُ سماءٍ سائراتٌ وأبْرُجُ[1]

ومن تحتكم وعن يمينكم وعن شمائلكم ﴿زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٦]:

بُسُطٌ وسجاداتٌ وطنافس لها خمل رقيق، ووَشْيٌ أنيق، وملمس ناعم وثير، ومنظر ليس له نظير.. والفرش ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وإذا كانت هذه هي البطائن فكيف بالظهائر؟!.. لها سمكٌ وحشوٌ بين البطانة والظهارة، وقد نُشِرَتْ في الأرجاء، وأنتم فوق ذلك كله متكئين فيها ناعمين.. بعضها فوق بعض.. مجلس موشًّى بأُبَّهَةٍ وفخامة تتصاغر عندها بل تنمحي أُبَّهَة الدنيا وفخامتها.. وأثاث لا تقوم له أعراض الدنيا ورياشها وزينتها..

يا لها من جلسةٍ مريحةٍ مطمئنةٍ..! والجو حولكم رخاءٌ ناعمٌ دافئٌ في غير حَرٍّ، نديٌّ في غير برد. فلا ترون فيها ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

(١) ديوان ابن الخياط، (ص: ٢٠٩). والصواني: الأواني المنسوبة للصين. ينظر: مختار الصحاح (ص: ١٨١).

ونظرت إلى الجالسين حواليك فإذا هم:

صِحابٌ وشبانٌ حسانٌ وجوههم ••• على سررٍ مصفوفةٍ ونمارقِ

اجتماع اللذات.. شيء فوق أمانينا القاصرات، وأقل من كلماتنا المحدودات:

وفيها جميعًا كنتم ﴿مُتَّكِينَ﴾ تدعون فيها ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ [ص: ٥١] تطلبون ألوان الفواكه والشراب الكثير.. مجرد كلمة.. ويُجاب الطلب، ويتحقق الأرب.. ولربما اشتهيتم مع الفاكهة أنواعًا مختلفة من اللحوم فذكر ربي -عزَّ جاره- أن ذلك قد تمَّ فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ [الطور: ٢٢]، وإنما تمَّ الإمداد بالفاكهة واللحم المشتهى تمهيدًا لذكر النشوة المترتبة على تناول الكأس بعدها، إذ كان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر كسروا سَورة حِدَّتِها في البطن بالشواء من اللحم، ويدفعون لذع الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه[1].. وكما هو حال جميع ما ينعم الله ﷻ به على عباده في جنته فهو نعيم دائم لا ينقص ولا يزول، ولا ينقطع ولا يحول.. فقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ [الطور: ٢٢] أي: "وزدناهم في وقت بعد وقت"[2]، و"يسرنا لهم شيئًا فشيئًا حتى يَكِرَّ ولا ينقطع"[3].

هكذا اجتمعت حولكم الزينة من أبوابها، والبهجة بأطنابها، وأجمل من ذلك كله

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٦٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٤١١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١١٣.

اجتماعكم يا أصحاب المتاب، بعد أن أصابكم في الدنيا ضرٌّ من الشيطان والفراق وعذاب، لتلتقوا الآن بعد ثباتٍ على الابتلاء في ثواب ربكم العظيم.. فنعم الثواب:

أخي إن نمتْ نلقَ أحبابَنا ••• فروضاتُ ربِّي أُعِدتْ لنا

وأطيارُها رَفْرَفَتْ حولَنا ••• فطوبى لنا في ديار الخلود

الولد اللؤلؤة: سيدي.. الشراب.. الشراب:

وبينما أنتم في ذلك دلف الولدان المخلدون يطوفون عليكم بالكؤوس والأكواب وما طاب من ألوان الشراب فيسقونكم من رحيق مختوم.. إنه شرابٌ لا غشَّ فيه، ويأتي على رأسه الخمر الصافية العتيقة البيضاء.

ومن الوصف العجيب الذي يوصف به ما في هذه الكأس التي في يدك أنه مَخْتُومٌ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾[المطففين: ٢٦]، فأنت تختم به آخر جرعة، فإذا شربت هذا الرحيق ففني ما في الكأس انختم ذلك بخاتم المسك فعاقِبتُها وآخر طعمها طعم المسك.. تكون رائحة آخره رائحة المسك.

كما أن هذه الكؤوس مختومةٌ، فخُتِمَتْ ومُنِعَتْ عن أن يمسها ماسٌّ إلى أن يفكَّ ختامها أنت ذا وصحبك الأبرار.. هل من سبيلٍ أيها المشتاق إلى العبور والاعتبار.. هل من سبيلٍ إلى الرجوع والادِّكار..

وقد ختم الكأس مع ذلك بالمسك بدلًا من أيِّ شيءٍ آخر[١]، وترى هذا الرحيق العذب مزاجه من تسنيم، تراه وقد مُزِجَ بشرابٍ يَنْصَبُّ عليكم من علوٍّ وهو أشرف شراب في الجنة.. إنها تسنيم أشرف عين ماءٍ تجري من علوٍّ إلى أسفل يشرب بها المقربون صرفًا، فتجري في الهواء بقدرة الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهل الجنة على قدر مائها، فإذا امتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرةٌ على الأرض، ولا تحتاجون إلى الاستقاء، فإذا ما أردتم شرب الرحيق السلسبيل الصافي مُزجت كؤوسكم منها لتزداد طيبًا، وتستنشق منها بعض ما أوتيه المقربون[٢].

◆ الله.. الله! انظر إليهم:

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥﴾ [المطففين: ٢٥] يَا لَهُ مِنْ كَأْسٍ مَصُونٍ تَقَرُّ بِهِ الْعُيُونُ، يَقُولُ لَهُ الْمَلِكُ كُنْ فَيَكُونُ، يُوجِدُهُ بين الكاف والنون، إِذَا شَرِبُوهُ لا يَحْزَنُونَ، إِذَا اسْتَوْعَبُوهُ لا يَسْكَرُونَ، نَعِيمُهُمْ لا كَدَرٌ فِيهِ وَلا هُمُومٌ، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥﴾ [المطففين: ٢٥].

شَرَابٌ قَدْ حَلا وَطَابَ، كَأْسٌ يَصْلُحُ لِلأَحْبَابِ، نَعِيمٌ مِنْ فَضْلِ الْوَهَّابِ، لَذَّتْ لَذَّةُ الدَّارِ وَدَارَ الشَّرَابُ، كَمُلَ الصَّفَا وَزَالَ الْعِتَابُ، طَابَ الْوَقْتُ وَرُفِعَ الْحِجَابُ، صَفَتِ الْحَالُ وَفُتِّحَتِ الأَبْوَابُ، زَارَ الْمُحِبُّ وَسَمِعَ الْخِطَابَ، ثُمَّ فَرِحَ الْقَوْمُ بقرب القيوم، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥﴾ [المطففين: ٢٥].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي١٩/ ٢٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي١٩/ ٢٦٣.

زَالَ الْعَنَا عَنْهُمْ وَأَقْبَلَ الرَّوْحُ وَالْفَرَحُ، وَارْتَفَعَتِ الْهُمُومُ عَنِ الصُّدُورِ فَانْفَسَحَ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ، وَرَضِيَ الرَّبُّ فَأَعْطَى الْمُنَى وَأَوْلَى وَمَدَحَ، وَطَافَ عَلَيْهِمُ الْوِلْدَانُ بِالأَكْوَابِ فَيَا لَذَّةَ الشَّرَابِ وَيَا حُسْنَ الْقَدَحِ! وَاسْتَرَاحَ مِنَ التَّعَبِ مَنْ كَانَ يَسْهَرُ ويصوم، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المطففين: ٢٥][1].

رُفعتْ الكلفة وحَلَّ الأنس.. ها أنت تنازع أحبابك الكؤوس المترعة في مزاح ودعة:

وأنت تمازح أحبابك.. فابتهج بهذه المداعبة.. إذ نراهم وهم في مجلسهم:

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣]، فتتنازعون من الشراب كأسًا من الخمرة الصافية ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣]، وتتمازحون في نزاعكم إذ تتجاذبونها للمداعبة والملاطفة، يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين، زيادة في الإيناس واللذة والنعيم.. يا للمشهد..! واشوقاه إلى لقاء الأحبة على سرر متقابلين..!

يا لذَّة اللُّقيا بكلِّ حبيب ... يا نسمةً عَبِقَتْ بنفح الطِّيبِ
للهِ ذاك الحبُّ ينثُر صافيًا ... يصفو بلا كدرٍ ولا تثريبِ
يتبادلون الكأسَ من سلسالها ... يتنعَّمون بوصل كلِّ حبيبِ
فوق الآرائكِ يسمعون لبعضهم ... تلك الحكايا دون أيِّ رقيبِ
واللَّحم طيرٌ والشراب مُعتَّقٌ ... واللَّحن نَغَمٌ من شفاهِ طَرُوبِ

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٣٥.

واشوقاه..! تتنازعون وتتمازحون.. وتعيدون ذكرى أخوةٍ طالما رعت حدود الله ﷻ في دنياها، فكلأها الله ﷻ برعايته في دنياها وأخراها، وتدللتم في الطلبات من فاكهةٍ وطعامٍ ولحم طير، وأمانٍ سابغات..

وإزاء هذه النعمة العظيمة تسمع منادي الحق ينادي:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين: ٢٦]

فليرغب الراغبون في هذا الشيء النفيس الذي لا مثيل له، في ذلك فليبادر المبادرون إلى العمل المؤدِّي إلى هذا النعيم، وفي ذلك فليتفاخر المتفاخرون وليتباهَ المتباهون.

أيها المشتاق إلى الجنة: أجل! ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين: ٢٦]، إنه مطلبٌ يستحق المنافسة.. مضمارٌ يستحق السباق.. غايةٌ تستحق المغالبة.. مكانٌ يستحق التشمير إليه.

ويكرِّر الله ﷻ عليك ذلك بعد أن ذكر هذه النعمة.. يكرِّر ذلك حاثًّا وحاضًّا:

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]

فأين المشمرون؟ أين المشمرون؟

«أَيُّهَا الْغَافِلُ رَبِحَ الْقَوْمُ وَخَسِرْتَ، وَسَارُوا إِلَى الْحَبِيبِ وَمَا سِرْتَ، وَقَامُوا بِالأَوَامِرِ وَضَيَّعْتَ مَا بِهِ أُمِرْتَ، وَسَلِمُوا مِنْ رِقِّ الْهَوَى وَاغْتَرَرْتَ فَأُسِرْتَ، فَالدُّنْيَا تَخْدِمُهُمْ وَالسَّعَادَةُ تَقْدُمُهُمْ حِينَ يُحْشَرُونَ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين: ٢٦].

لَقَدْ شُوِّقْتُمْ إِلَى الْفَضَائِلِ فَمَا اشْتَقْتُمْ، وَزُجِرْتُمْ عَنِ الرَّذَائِلِ وَأَنْتُمْ فِي سُكْرِ الْهَوَى مَا أَفَقْتُمْ، فَلَوْ حَاسَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَحَقَّقْتُمْ، عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ بِغَيْرِ وَثِيقٍ تَوَثَّقْتُمْ، فَاطْلُبُوا الْخَلاصَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى فَقَدْ جَدَّ الطَّالِبُونَ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين: ٢٦]

أَيْقَظَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَصَالِحِنَا، وَعَصَمَنَا مِنْ ذُنُوبِنَا وَقَبَائِحِنَا، وَاسْتَعْمَلَ فِي طَاعَتِهِ جَمِيعَ جَوَارِحِنَا، وَلا جَعَلَنَا مِمَّنْ يَرْضَى بِدُونٍ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]»[1].

جلسة محادثة: تعلنون فيها أنكم أشد حبًّا لله:

ولربما اشتقت إلى أخٍ من أحبِّ إخوانك من أهل الدنيا، عندها قد تتساءل عنه، ولربما قلت: ربِّ! أين أخي فلان؟ فقد يحدث لك شيءٌ عجيب، إذ يأمر الله ﷻ «يجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا» فتتحادثان فيتكئ هذا ويتكئ هذا فتتحدثان بما كان في الدنيا.. «فيقول أحدكما لصاحبه: يا فلان تدري يوم كنا في مكان كذا وكذا فدعونا الله ﷻ أن يغفر لنا.. فغفر الله ﷻ لنا»[2]، لا تقف وأنت تقرأ هذا ساكنًا، بل ارفع يديك أيا حبيباه مع صحبك وقل: رب يا رحمن.. اغفر لنا.

وفي إحدى جلسات أُنسكم الخالد قمتم تتبادلون الأحاديث، وتقلِّبون أيامكم

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٣٥.

(٢) ( ) الأصبهاني في العظمة ٣/ ١١٢٠، وانظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١..وبغض النظر عن صحة الحديث هنا فإن إقبال أهل الجنة بعضهم على بعض يتساءلون يسهل تصور وقوع ذلك إن شاء الله تعالى.

الماضيات وتستدعون سالف الذكريات في أيام الدنيا الخاليات... ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور: ٢٥]، أقبل بعضكم على بعض تتساءلون.. تتذاكرون ما كنتم فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة، وتحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنكم، وقد يسأل بعضكم بعضًا: لِمَ أكرمنا الله بهذه المنزلة الرفيعة؟

كنا مشفقين من عذابه وعقابه.. أن يتخطفنا الموت قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه:

قال بعضكم مبينًا السبب: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦]: إنا كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين وجلين من ربنا ﷻ..

مشفقين من عذابه وعقابه، أن يتخطفنا قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه.

مشفقين من معاصينا الخاطئات، أن تأكل منا إيماننا ويقيننا فترمينا في دنيا الغفلات.

مشفقين من زلل أقدامنا بعد الدين والثبات، أن نفتن عن ديننا ونرجع على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ﷻ، وقد خلت من قبلنا في ذلك المِثُلات.

مشفقين من معاصٍ فرطت منا، وغفلة في أداء الطاعات، نشفق أن ترد علينا فلا تقبل منا، فتمضي حياتنا حسرات.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٧] بالتوفيق والهداية أولًا، ثم بالثبات ثانيًا، ثم بالمغفرة والجنة ثالثًا، ثم تصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧]: وهي طبقةٌ من طباق جهنم..

وتابعتم الحديث: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ فنعبده في الدنيا، ثم نسأله ونتضرع بين يديه أن يمنَّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا، والمغفرة لذنوبنا.. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٨]، يا رفعة الفوز..! فاللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم.

أيا خاطب الجنة: هذا هو الميدان الذي تذوب من أجله قلوب العشَّاق، فرحم الله ﷻ امْرَأً ضمَّر نفسَه للسباق، وساقها إلى الغاية أشدَّ مساق، وخفَّف حَمْلَه للحاق بخيرة الصحب والرفاق واستعدَّ للموت قبل هجومه، وأخذ حذره منه قبل قدومه، وأنفذ دموعه على الأوقات التي أضاعها قبل أن تَزِلَّ به القدم قبل أن يُؤَاخَذَ بما علم وبما لم يعلم[1].

(١) وانظر: اغتنام الأوقات، ص:٦٢.

المشهد السابع

حاجة أهل النار إليك.. نعيمٌ عظيم..
وجاهك عند الله نعيمٌ أعظم

شفاعتك لإخوانك: كرامةٌ جديدةٌ ومنزلةٌ عَلِيَّةٌ:

◆ **أيا صاحب القلب المنيب:** عندما تستشعر الخلاص، وتأمن من مكر الله ﷻ، وتطمئن إلى النجاة من النيران، والتنعُّم بالجنان يلتهب قلبك على إخوتك وصحبك مِمَّنْ قَصُرَتْ بهم أعمالهم، وذهبت بهم رزيَّتُهم في الدنيا حتى جعلتهم يُفَوِّتُون رحمة الله وتفوتهم، وعندما نجوت بمرورك على الصراط يسعى نورك بين يديك ومن خلفك رأيت بعض هؤلاء وكانوا من المصلين.. رأيتهم وهم يتساقطون بين يديك ومن خلفك في جهنم، ووقع ذلك في قلوب أحبائهم من الناجين فقاموا يناشدون النبي ﷺ مناشدةً عظيمة للشفاعة فيهم، نعم هاهنا ينبغي أن تكون المناشدة والمتابعة.. هاهنا.

عند ذاك تجادل ربك ﷻ فيهم طالبًا الشفاعة في إخراجهم، ويلهمك الله ﷻ أن تشتد في طلبك والشفاعة فيهم عند ربك ﷻ، «فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ

لَـهُ فِي الدُّنْيَا، أَشَدَّ مُجَادَلَةً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ»[1]، فتقول عند ذاك ومثلك باقي إخوانك من المخبتين وقد رأيتم كرامتكم عند ربكم..

«تقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا فأدخلتهم النار». الله! الله! هكذا بإدلال ورجاء أن يقبل الكبير المتعال، شفاعتكم بإذنه لإخوانٍ لكم عشرت بهم أعمالهم، فزُموا في النار.. نعوذ بالله..

فتكون البشرى لك أن يقبل الله ﷻ شفاعتك «فيقول -لك ولصحبك-: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم»..

الشرف... يُشارك المنيب في وفد الله ﷻ إلى أهل النار.. للشفاعة في بعضهم:

فتذهبون إلى النار مع الملائكة دون أن تصيبكم؛ إذ لكم حمايتكم الخاصة، أوَلستم وفد الله ﷻ؟! فتشاهدون أصحابكم دون أن تصيبكم النار بأذاها، «فتأتونهم [فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله ﷻ على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود]، فتعرفونهم بصورهم.. لا تأكل النار صورهم..» وترونهم في حالةٍ عظيمة من العذاب والنكال.. قل معي بخشوعٍ وإخباتٍ: اللهم إني أسألك العافية... «فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربنا أخرجنا مَنْ أَمَرْتَنا»، فيجود سبحانه بعفو بعد عفو وصفح بعد صفح.. إذ يزيد

(١) انظر الحديث عند: النسائي (٥٠١٠)، ابن ماجه (٦٠)، وقال الأرناؤظ: أخرجه بنحوه: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، من طرق عن زيد بن أسلم، بهذا الإسناد.

الله ﷻ لكم برحمته وفضله صنفًا آخر فـ«يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينارٍ من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة» قال أبو سعيد: فمن لم يصدِّق بهذا فليقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء: ٤٠] -وأخيرًا- يقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا، فلم يبق في النار أحد فيه خير»..

وعند ذاك يزيد الله ﷻ برحمته وفضله أصنافًا أُخر.. جبار السَّمَوَات والأرض يقول: «شفعت الملائكة، وشفع الأنبياء، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين.. فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين: ناسٌ لم يعملوا لله ﷻ خيرًا قط، قد احترقوا حتى صاروا حِمَمًا، قال: فيؤتى بهم إلى ماءٍ يقال له ماء الحياة فيُصبُّ عليهم فَيَنْبُتُون كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ فَيَخْرُجُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ..»، و«فِي أَعْنَاقِهِمُ الْخَاتَمُ -مكتوبٌ عليه- عُتَقَاءُ اللهِ، قال: فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا تَمَنَّيْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، قَالَ: "فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟" قَالَ: "فَيَقُولُ: رِضَائِي عَلَيْكُمْ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا»[(١)].

وعندما يغفر الله ﷻ لأهل الإخلاص ذنوبهم يقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، ويظنون أنهم يستطيعون الخداع والمراوغة، فيقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف الكافر

(١) أحمد (١١٨٩٨) واللفظ له، البخاري (٧٤٣٧).

أن الله تعالى لا يكتم حديثًا، وعند ذاك ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء: ٤٢]...

فانظر جاهك عند أرحم الراحمين.. مزيدًا من النعيم العظيم المبين..

زيارة صديقٍ من أصحاب الجنة لصاحبه من أهل النار:

وأنتم في مجلسكم الحافل بحمد الله وتمجيده على ما أنعم عليكم.. تنعمون بتحاورٍ لذيذ، وتتذاكرون فيه الماضي والحاضر.. أخذتم تتبادلون الأحاديث عن أيام الكدح في الدنيا، وقام كلٌّ منكم يروي كيف عاصر أيام الدنيا فكادت أن تعصره ببلائها، وكيف عاركها فكادت أن تعركه بابتلائها، وكيف بغت عليه نوائب الخير والشر تبتلي إيمانه، فكادت أن تزيغه لولا أن تداركه الله ﷻ برحمةٍ منه وفضل، وأخذ كلٌّ منكم يسائل صاحبه عما قاله وقيل له، وعما حدث له.. وطاب المجلس.. إي والله لقد طاب.. طاب فواشوقاه لمحادثة الأصحاب على فاكهة وشراب، في جنات منحها برحمته المتفضل الوهاب..!

واشتد النقاش والمساءلة، للذة الحديث ولذة المقابلة..﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾ [الصافات: ٥٠]، أقبلتم كلٌّ يبادل الآخر أحاديث الدنيا، تمامًا للأنس في الجنة، لا تنس منظر المجد، إذ هم في مساءلتهم لبعضهم وأثناء ذلك:﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥﴾[الصافات: ٤٥]، فهم يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّرَّاب..

وفي الجنَّاتِ لـذَّاتٌ ومنهـا أحاديـثُ الكِـرامِ علـى المُـدَام

وَضَحَتْ لَهُمْ مَحَجَّةُ النَّجَاةِ فَسَارُوا، وَلاحَتْ لَهُمْ أَنْوَارُ الْهُدَى فَاسْتَنَارُوا، وَعَرَفُوا دَارَ الْكَرِيمِ فَطَافُوا حَوْلَهَا وَدَارُوا، وَصَانُوا مَطْلُوبَهُمْ عَنِ الأَغْيَارِ وَغَارُوا، وَلَمْ يَرْضَوْا فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ بِالدُّونِ، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة: ١٧].

أَعْدَدْنَا لَهُمُ الْقُصُورَ وَالأَرَائِكَ، وَأَخْدَمْنَاهُمُ الْوِلْدَانَ وَالْمَلائِكَ، وأبحناهم الجنان والممالك، وسلَّم عليهم في قصور الْمَالِكُ، وَإِنَّمَا وَهَبْنَا لَهُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا فِي خِدْمَتِنَا يَجْتَهِدُونَ، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة: ١٧].

اسْتَنَارَتْ بِالتَّحْقِيقِ طَرِيقُهُمْ، وَتَمَّ إِسْعَادُهُمْ وَتَوْفِيقُهُمْ، وَتَحَقَّقَ بِالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ تَحْقِيقُهُمْ، وَسَارُوا صَادِقِينَ فَوَضَحَتْ طَرِيقُهُمْ، وَشَرُفَ بِهِمْ مُصَاحِبُهُمْ وَرَفِيقُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ أَخْلَصُوا فِي طَلَبِ مَا يَقْصِدُونَ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة: ١٧][1].

"فانبعث أحدكم في أثناء ذلك من فضلاء الأولياء الصابرين الثابتين على دين الله-جلَّ جلاله- في الدنيا، انبعث يستعيد ماضيه، ويقصُّ على إخوانه طرفًا مما وقع له"[2]، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات: ٥١]: كان لي صديقٌ ملازم لي، ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات: ٥٢]: كان هذا الصديق يسخر من اليوم الآخر ومن البعث

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ص٢٩٨٧.

والجزاء، ويقول لي: أحقًّا ما سمعناه عنك؟ أحقًّا أنت تصدِّق بالمبعث والجزاء؟ إنها لهجة المستهزئ المحقِّر لليوم الآخر.

◆ **لربما قاطعه أحدكم قائلًا:**

نعم، كان لك قرينٌ من البشر يوسوس لك بهذا، وأما أنا فكان الشيطان هو قريني الذي يوسوس، يراودني على الكفر باليوم الآخر..

◆ **ربما قاطعه ثالث قائلًا:** قد كان لكلٍّ منا قرينه من شياطين الإنس والجن يحاولون أن نَضِلَّ السبيل معهم، ولكن يتفاوت مقدار تأثيرهم علينا من شخص لآخر..

◆ **ولربما قال رابع:** وما قصه الله ﷻ لنا في سورة الكهف الممجدة من قصة الرجلين: صاحب الجنتين وصاحبه الفقير، عبرةٌ ظاهرة.. تصوَّروا كان يريد إغواءه لينكر اليوم الآخر لمجرد أنه غنيٌّ.. قام يتطاول على ربه ﷻ، فيقول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦]، هاهي ذي قد بادت، وهاهي ذي الساعة قد قامت.. فماذا هو فاعل؟

◆ **أكمل صاحبكم قصته فقال:** قام هذا القرين ينفث سُمَّه بكلامه، يقول بلهجة التعالي والغرور: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الصافات: ٥٢]؟! أيعقل أن تكون مصدِّقًا لما يقال عن اليوم الآخر؟! أيعقل أن تكون من المصَّدقين.. من المتصدقين بالمال طلبًا لثواب الآخرة؟!

◆ **ومضى صاحبكم يقول:** وتعجب منه كيف أوتي هذه القدرة على الحوار، وأنعم الله ﷻ بها عليه فبدل نعمة الله كفرًا، وأراد أن يحلِّني معه دار البوار بإنكار ركنٍ من أعظم أركان الإيمان، ما زلت أذكره وهو يتابع حديثه ويكرِّره ويقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: ٥٣]: أيمكن أن يحدث هذا: أَإِذَا صرنا عظامًا نخرةً باليةً، ثم فَتَّتنا التراب فصرنا كأن لا وجود لنا إلا هذه العظام المأكولة.. بعد ذلك نُحْيا ونبعث من جديدٍ ثم ندان ونجازى ونحاسب؟!.. تصوروا.. كان يسخر مني فيجمع الناس الذين على رأيه ليرهبني ويذهب عزتي بإيماني.. يجمع الناس ويقول كما كان يقال للنبي ﷺ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ [سبأ: ٧]؟ أندلكم على هذا الشخص الذي يقول بأن العظام الممزقة التي نشرتها الريح في كلِّ مكان.. سوف تعود خلقًا آخر؟

هل أنتم مطَّلعون.. لتروا كرامتكم وجزاء عناده؟

◆ **وعندما وصلتم إلى هذا الحد من الحديث ناداكم منادي الحق: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات: ٥٤] على ما آل إليه أمر هذا المخاصم للحق؟**

وقال صاحبكم الصابر المخبت الأمرَ ذاته، قال لكم: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات: ٥٤] إلى النار، لننظر كيف حال ذلك القرين في دار البوار، وتقارنوا؟ أما حالي فقد رأيتموه، وبقي أن نرى حاله.. ونعلم ذلك عين اليقين.

فقلتم جميعًا: نعم.. نريد أن نطَّلع على حاله، وننظر مآله.

عندها قال لكم: هلموا فاطلعوا، فقمتم جميعًا إلى نجائبكم -مراكبكم-، وربما فتحت لكم كُوَّةٌ ترون من خلالها أهل النار من غير أن يصلكم شيءٍ من أذاهم، وربما كانت وسيلة الرؤية غير ذلك..﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ومن معه من المؤمنين الصحب القانتين على هذا الجاحد للبعث﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٥٥]، فرأيتم حال المنكر ليوم الدين، كيف قد غُمس في وسط النار.. و"لولا أن الله جلَّ وعزَّ عَرَّفه إيَّاه لما عَرَفه، فقد تغيَّر من شدَّة ما عُذِّبَ"(١).

فلما رآه صاحبكم في شدة العذاب، وسواء الجحيم ناداه متلهِّفًا على ما أدركه الله ﷻ به من نعيم:﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾ [الصافات: ٥٦]، والله لقد كدتَ أن تهلكني بوسوستك وإغرائك، لقد كدتَ أن تهلكني لو اتبعتك وأصغيت إليك، والله لقد كدتَ تهلكني وتزعزع إيماني، كنتُ أحيانًا أهمُّ بفعل ما تفعل من اللعب والعبث والتمتع الحرام بالدنيا، لكن الله ﷻ أدركني وثبتني..

لربما قال له: أرأيتَ لو استجبتُ لك فما يكون مصيري سوى الهلاك المحقق كما هو حالك الآن..؟

قال له:﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٧]، لولا أن عصمني ربي

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٨٣.

ووفقني للثبات على دينه، لولا عصمة ربي وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٧] لكنتُ معك في النار محضرًا معذَّبًا..

لكأنه قال له مكرِّرًا: "يا هذا، لقد كدتَ توردني موارد الردى بوسوستك لولا أن الله ﷻ قد أنعم عليَّ، فعصمني من الاستماع إليك"(١).

وتثير رؤيتُكم لقرينه في سواء الجحيم شعورَكم بجزالة النعمة التي نلتموها فأحبَّ أحدكم أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها تلذذًا بها، وربما كان صاحب القصة ذاته.. فقام يقول:

أيها الجاحد للبعث: انظر إلينا: ألسنا بمخلدين منعمين، أفما نحن بميتين ولا معذبين ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ [الصافات: ٥٩] انظر إلينا فهذه هي حالنا وصفتنا التي كنتَ تستهزئ بها في الدنيا.

ومضيتم تقولون ذلك تحدُّثًا بنعمة الله ﷻ في أنكم لا تموتون، ولا تعذَّبون.. واعترافًا بفضل الله ﷻ وامتنانه عليكم في أنكم أنتم الفائزون.

عندها استذكرت مع صحبك ما كان الكافر المغرور بدنياه يزهو به، ويدعو الناس إليه من الانصراف للدنيا والركون إليها، تذكرتم أنه كان يزين للناس

(١) انظر: في ظلال القرآن، ص: ٢٩٨٨.

ذلك بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: ٣٤]، يقول: لو كنتَ على حقٍّ أيها المؤمن لم تكن بهذه الحالة من الضعة وفقر الحال.. هكذا كان يستهزئ فقد رأينا الآن عاقبة استهزائه وتكذيبه، والحمد لله رب العالمين.

فلما تذكرتم ذلك قلتَ أو قال أحد المخبتين منكم فوافق قوله قول الملائكة حوله:

أترون النعيم الذي نحن فيه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦٠، ٦١]: لمثل هذا العطاء والفضل فليعمل العاملون..

ولعلكم عند ذلك سمعتم منادي الحق ينادي معلقًا على ما حدث بينكم من حوار، يزيد نداؤه من نعيمكم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦٠، ٦١].

يا لها من كلمة ختام لقصة الفتى الهمام الصابر على دينه توقظ أنفسنا من غفلة الدنيا، وتنصب هِمَمَنا لعزة التوفيق في الحياة الأخرى[1].

إنه نداءٌ يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير: لمثل

(١) أعمل الكاتب الآيات في كل الاحتمالات، فمثلًا: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١] يحتمل أنه كان تعليقًا على القصة ليعتبر أهل الدنيا، ويحتمل أنه قاله أحد الملائكة أثناء حدوث القصة في الآخرة زيادة في التنعيم لأهل النعيم، ويحتمل أنه قاله أحد أصحاب القصة أو كلهم ابتهاجًا وإعلانًا بأنه كان ينبغي أن يعمل العاملون لمثل هذا المصير حتى لا يقعوا فيما وقع فيه هذا الشقي من الخسارة. وهكذا بقية الآيات.

هـذا النعيـم الـذي لا يدركـه فـوت، ولا يخشـى عليـه مـن نفـاد، ولا يعقبـه مـوت، ولا يتهـدده العـذاب، لمثـل هـذا فليعمـل العاملـون، فهـذا هـو الـذي يسـتحق الاحتفـال، ويُطلـب النسـج على منواله لأقوم مثال، وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيـد.. زهيـد حيـن يقـاس إلـى هـذا الخلـود[1].

وفـازَ بالخلـد أقـوامٌ لهـا عملـوا ... وفي رضى الله ما قاسـوه واحتملوا

وخالفوا النَّفسَ والشـيطانَ حينَ أتى ... مزيِّنًـا سُـبُلًا يـا بئسـتِ السُّـبُلُ

في طاعـة الله أمضـوا عيشَـهمْ قُربًا ... لهـمْ بربِّ الورى في دهرهمْ شُـغُلُ

فبالغـداةِ لذكـر الله قـدْ نَصَبُـوا ... وفي دجى الليلِ كـمْ ناجوه وابتهلوا

فأُدْخِلُـوا جنـةَ الفـردوس وافرحًا ... لمثـلِ هذا يكونُ الجِـدُّ والعَمَلُ[2]

هؤلاء أهل الجنة المباركون:

طَـالَ مَـا عَطِشُـوا فِـي دُنْيَاهُـمْ وَجَاعُـوا، وَذَلُّـوا لِسَـيِّدِهِمْ صَادِقِيـنَ وَأَطَاعُـوا، وَخَافُـوا مِـنْ عَظَمَتِـهِ وَارْتَاعُـوا، وَبِأُخْرَاهُـمْ مَـا يَفْنَـى مِـنْ دُنْيَاهُـمْ بَاعُـوا، وَحَرَسُـوا بَضَائِعَ التُّقَـى فَمَـا فَرَّطُـوا وَلا أَضَاعُـوا، وَجَانَبُـوا مَـا يَشِـينُ وَصَاحَبُـوا مَـا يَلِيـقُ، فَطَـافَ الْوِلْـدَانُ عَلَـى شِـفَاهٍ يَبِسَـتْ بِالصِّيَـامِ وَأَتَـى الرِّيـقُ، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

(١) انظر: في ظلال القرآن ص: ٢٩٨٨.

(٢) الأبيات للدكتور سعيد بن دحباج -وفقه الله-.

تَحَمَّلُوا أَثْقَالَ التَّكْلِيفِ، وَرَفَضُوا التَّمَادِيَ وَالتَّسْوِيفَ، وَقَطَعُوا طريق الفوز للتشريف، وجانبوا موجب العتاب وَالتَّعْنِيفِ، فَتَوَلاهُمْ مَوْلاهُمْ وَحَمَاهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَأَقَامُوا الولدان تسقيهم من الرحيق، بأكواب وأباريق[1].

يا أهل الجنة أشرفوا على أهل النار، وذكروهم بما كانوا يستهزئون:

وفي إحدى جلساتكم العامرة بأطايب الملذات وأعظم المحامد والتسبيحات، تساءل بعض المؤمنين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٦]؟[2] طرأ عليكم أن تعرفوا ذلك عيانًا، وتبصروه بيانًا.. عند ذاك تقوم مع بعض أصحابك من المفلحين برحلةٍ تستكشفون بها ما آل إليه حال الأشقياء الخاسرين، حيث تتحركون بأرائككم المرتفعة إلى مكانٍ تطلُّون منه على أصحاب النار، وربما بقيتم في متكئكم تنظرون إليهم عبر كُوَّةٍ تفتح لكم لتروهم وأنتم في نعيمكم ترفلون، وهم في جحيمهم يعذَّبون، تقفون منهم بحيث يسمعونكم.. يسمعونكم ولكن أنى لهم أن يتذوقوا مجرد عبيرٍ من فوح شذا النعيم الذي في الجنة؟

هناك تنادي ومن معك من أصحاب الجنة أصحاب النار من تعرفون ومن لا تعرفون.. تنادونهم سائلين سؤال تقريعٍ وتعيير:

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٤٧.

(٢) هذا واحد من التفاسير الواردة فيها. انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ٢٦٨.

يا أهل النار ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ في الدنيا على ألسن رسله من الثواب ﴿حَقًّا﴾ ، وعاينا ما قيل لنا فوجدناه صدقًا..

فماذا عنكم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ على ألسنة الرسل ﴿حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]؟

يا أهل النار: هل عاينتم عقوبة ربكم على الكفر به؟

يا أهل النار: هل ذقتم سوء مصيركم على معاصيه؟

يا أهل النار: هل شعرتم بعاقبة استهزائكم بنا وسخريتكم منا؟

يا أهل النار: هل وجدتم ما وعد ربكم من ذلك حقًّا؟

تقولون ذلك فخرًا و"تبجحًا بحالكم، وشماتةً بأصحاب النار، وتحسيرًا لهم"..

◆ تصوَّرِ المشهد..

تأمل أيا حبيباه.. كم في هذا السؤال من السخرية المُرَّة بمصير المبطلين!.. كم فيه من السخرية بمصير الضالين! وانظر وقد نضَّر الله وجهك وقلبك: كم فيه من شعورك بالاطمئنان إلى النعيم العظيم الذي تحقق لك!..

تصور نفسك وأنت تقول لهم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] لم تقل لهم: هل وجدتم (ما وعدكم).. بل (ما وعد) لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن مخصوصًا بما وجدوه من النقمة والعذاب، بل ساءهم أن رأوك وأصحابك في الجنة

تُكَرَّمون وهم في الجحيم يصرخون.

"ويجيء الجواب في كلمةٍ واحدةٍ منهم: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، كم تحمل هذه الكلمة من أثقال العذاب، وآلام الخزي، وعار الذلة والهوان! هؤلاء هم المستكبرون في الأرض.. الآن بكل خزيٍ وألم.. يقولون: نعم..

وعندئذ ينتهي الجواب، وينقطع الحوار.. وترى نفسك مع صحبك المخبتين على الكفار تضحكون و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾ [المطففين: ٣٥] إلى مصيرهم البائس.. ﴿يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٣٥، ٣٦] نعم، قد ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون.

عندها نادي منادي الحق فيما بينهم بما يجلجل أكباد المتحسرين، ويمزق آلام الخائبين:

﴿لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝٤٤ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۝٤٥﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥]، ﴿لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فصدوها عن سبيل الله، وصدوا الناس عن طريق الله، وأرادوا الحياة عوجًا لا استقامة فيها..[1].

(١) الظلال ص١٢٩٣.

ينطلق النداء.. يشق الأرجاء:

لعنة الله على الظالمين الذين هم بالآخرة كافرون، وتتردد أصداء: لعنة الله على الظالمين في أرجاء الوجود بينكم معاشر أهل الجنة، وبين أهل النار، تتردد الأصداء فتزدادون نعيمًا إلى نعيمكم، ويزدادون عذابًا إلى عذابهم، وكأن الكون يُسَبِّحُ عند ذلك وقد قضي بينكم بالحق، وآخر تسبيحه في هذا المشهد المهيب: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

نداء أخير من أهل النار لكم يزيدكم غبطةً وحبورًا:

ولما رأى أهل النار أن أصحاب الأعراف قد صاروا إلى الجنة، وتذكروا مع وطأة العذاب أن لهم أقرباء في الجنة، وأن المؤمنين كانوا أصحاب القلوب الرحيمة في الدنيا.. طَمِعوا في أن يُغَاثوا بشيءٍ يخفِّف عنهم الآلام الرهيبة التي يتعرضون لها[1]، فقالوا: يا ربنا إن لنا قراباتٍ في الجنة.. فأْذَنْ لنا حتى نراهم ونكلمهم، فيؤذن لهم، عند ذاك ينادونكم وأنتم في الجنة، فلا تعرفونهم جميعًا بأشخاصهم لسواد وجوههم، وشدَّة ما لاقوا ويلاقون في النار، إلا من دُلِلْتم أنه فلان، عند ذاك يتجهون إليكم وأنتم ترونهم وتُدَلُّون على أسمائهم، يتجهون إليكم وقد رأوكم تنظرون إليهم، فيقولون: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ﴿أَفِيضُوا۟﴾: أعطونا شيئًا مما وسَّع الله ﷻ عليكم به..

(١) انظر: تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥.

وينادي أحدهم قريبه وصاحبه: قد احترقتُ فشيئًا من ماءٍ أو شيئًا من طعامٍ، قد احترقت..[1].

يا أهل الجنة قد رزقكم الله ﷻ ملكًا عظيمًا.. فشيئًا يسيرًا تجودون به علينا.. الغوثَ.. الغوثَ.

لا إله إلا الله! اسمعهم -أيا حبيب الجنة- اسمعهم واهتف مُخْبِتًا خاشعًا رافعًا ليديك: يا أرحم الراحمين أجرني من النار.. يا مولاي ومالك روحي.. يا عالمًا بسِرِّي ومسألتي: أجرني من النار..

فتردُّون عليهم بما يزيد حسرتهم، ويشعل أفئدتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠]، حرَّم الله على الكافرين طعام الجنة وشرابها[2]؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ومنادي الحق ينادي مدويًا محذرًا مخوفًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وعندها سمع الكفار ما أعادهم إلى الهلاك والبوار، وسمعت وصحبك الأخيار ما زادكم غبطةً وسرورًا بالنجاة من النار.. سمعتم مناديًا ينادي على الكفار: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٣٥، الأحاديث المختارة ١٠/ ٢٣٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٨/ ٢٠٠، تفسير القرطبي ٧/ ٢١٥.

المشهد الثامن

الأمان التام.. خلود
لا موت ولا قلق ولا خِصام

يا أهل الجنة الخلودَ.. الخلودَ:

وقد يدور ببالك وينغص عيشتك الراضية المرضية، ويُكَدِّر عليك أن هذه النِّعم مهما طال زمنها لا بدَّ أن تنقطع، ومهما طال أمدها لا بدَّ أن تزول.. مهما طال أمدها، واستطال دهرها، فيرفع عنك غمامةَ التَّفكير.. نداءُ الحق يدوي في الأرجاء: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١]: أنتم فيها ماكثون أبدًا لا تبيد.. فلا تخافوا زوال نعيمكم فأنتم منه كلَّ يوم في مزيد.. ولا تحوُّل عما أنتم عليه من العيش الرغيد.

وتَنَعَّم أيا محب القرآن بأكثر من ذلك؛ إذ تتكرَّر النداءات تحبوكم بالنعيم المقيم، والفضل العميم، والرفعة والتكريم، واللذة المتجددة التي لا يشوبها نصبٌ، ولا ينغصها انقطاع أو عطب، فتسمع منادي الحق: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨]، فأتم الله ﷻ عليك النعمة بالخلود الدائم..

بل ما سُمِّيت جنات عدنٍ بهذا الاسم إلا لأنها تدلُّ على الإقامة الدائمة التي لا انتقال معها، ويُعْلَنُ لكم في أرجاء الجنة أنها تسمَّى باسم دار الْمُقَامَةِ، فهي مكان إقامةٍ دائمٍ لا تنقلون عنه، ولا تبغون أنتم عنه انتقالًا، لا تبغون عنه تحوُّلًا و﴿حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨].

يَفُوزُ كُلُّ مُطِيعٍ لِلْعَزِيزِ غَدًا ... بِدَارِ عَدْنٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارِ

لَهُمْ نَعِيمُ خُلُودٍ لا نَفَادَ لَهُ ... يُخَلَّدُونَ بِدَارِ الْوَاحِدِ الْبَارِي

وَمَنْ عَصَى فِي قَرَارِ النَّارِ مَسْكَنُهُ ... لا يَسْتَرِيحُ مِنَ التَّعْذِيبِ فِي النَّارِ[1]

◆ **يا صاحب القلب المنيب:** لكأنه يُنادى عليكم بكلمات الترحيب الخالدة: هذا يوم الخلود، تخلدون في الجنة أبدًا فلا تموتون أبدًا، ولا تظعنون أبدًا، وأنتم في ذلك كلِّه لا تبغون عنها حِوَلًا.. أَعِدَّ نفسَك فإنه مصير يستحق أن يُعَدَّ له.

◆ يوم الخلود: يوم الفرحة لكم.. ويوم الحسرة لهم: ◆

ولتأكيد وتقرير اليقين بالخلود يعرض بصورةٍ محسوسةٍ في حدثٍ عجيب.. إذ بينما أنتم في نعيمكم وحبوركم وسروركم، تسمعون المنادي ينادي يا أهل الجنة.. فتنظرون ثم تجيبون الداعي، فتشرئبون وتنظرون إلى الجهة التي أُمرتم بالنظر إليها.. عند ذاك يأمر الله خالق الأكوان، ومانح الحياة للملائك والإنس والجان، يأمر الله ﷻ

(١) بستان الواعظين، ابن الجوزي، ص: ٣٤.

أن «يُؤتى بالموتِ كهيئة كَبْشٍ أَمْلَح[1]، فيناديهم مناد فيقول: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ»، تخرجون خائفين وجلين ربما لأن النداء من خارج الجنة، من «الصراط» فتخافون أن يكون ذلك يعني نهايةَ نعيمكم، وقد آن أوان إخراجكم، ويؤجِّج هذا الخوف أن أعمالكم الصالحة بالغةً ما بلغت، لا تساوي شيئًا من النعيم الذي ترفلون فيه لولا رحمة ربي، عندها ينتابكم القلق، ويعتريكم الوجل، ويغشاكم الخوف، فإذا ما اطلعتم ونظرتم، أُشير لكم إلى كبشٍ أَمْلَح على الصراط، وقيل لكم عندها:

«فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ رَبَّنَا، هَذَا الْمَوْتُ»، وكلكم قد رآه، عندها تأتيكم الخواطر، وتنتابكم الظنون.. ما علاقة الموت بنا الآن.. ثم تسمعون المنادي ينادي:

« يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ»، أجل! كانوا ينتظرون أي نداءٍ لهم من خارج النار عسى أن يكون فيه بارقة أمل.

« فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ.. فيقول: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ» لعل التفكير يعتريهم فيقولون: لو كُتب علينا الموت لكان أفضل مما نحن فيه..

أنتم أي أهل الجنة تنظرون وتوجهون نظركم إلى الموت، وأهل النار يحدون

(١) الأملح: الذي بياضه أكثر من سواده، وقيل: هُوَ النَّقِيُّ البَياض. النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٥٤.

نظرهم إليه، ينتظرون ماذا هناك.. وأيُّ شيءٍ سُيُقضى..

◆ **عندها تكون المفاجأة للفريقين معًا.. مفاجأة وأي مفاجأة..**

إذ يرى الفريقان معًا المشهد الهائل التالي:

يؤخذ الموت «فَيُذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ»..

«ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ..»..

ثم قرأ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩][1]، و«لولا أن الله ﷻ قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء، لماتوا فرحًا، ولولا أن الله ﷻ قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء، لماتوا ترحًا»[2].

فلا تسل حينها عما يغشى أهل دار الهوان من الصراخ والعويل والبكاء الطويل.. لا تسل حينها عن الحسرات والزفرات.. لا تسل حينها عن الدموع السوافح والبواكي النوائح..

ولا تسل كذلك عن الأفراح والمسرات.. تشرق بها وجوه أرباب النجاة.. وتترد بشائرها لدى سكان الجنات.. فتغمر الطمأنينة قلوبهم.. ويملأ برد اليقين نفوسهم..

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، مسلم (٢٨٤٩).

(٢) الترمذي (٣١٥٦)، قال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٩٥٨)، في حين ذكر في ضعيف سنن الترمذي، ص: ٣٩٤ أنه صحيح، دون قوله: "ولولا أن الله قضى".

وهناك تتكرر الأعلام بالإعلام عن يوم الخلود زيادةً في إشاعة المسرات.. وتُكَرِّرُ الأرجاء نداء رب الأرض والسموات: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٤] لمثله فليعمل العاملون..

◆ **يا أهل الجنة:** الخلود لكم.. حياةً، والخلود لكم استمتاعًا.. ولِمَ لا؟ والجنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، فالأكل دائمٌ لكم ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥] والخيرات والملذات والمشتهيات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣١] لا ينقطع عنكم، ولا يزول، ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ بلا نهاية.. ومنادي الحق يُبَشِّرُكم ويزيد نداؤه في سروركم: ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [الرعد: ٣٥][1].

◆ **يا أهل الجنة:** أنتم الآن في المقام الأمين، في مقامٍ آمن من كلِّ سوءٍ وآفة ومكروه، وتنغيص أو فعلٍ سيئٍ مسفوه. في مقامٍ آمن من الزوال والخراب.. وأنواع النقص والاضطراب.

يا أهل الجنة: أما تسمعون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٥١]

أما تسمعون: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

قد جمعنا لكم بين أمن المكان وأمن الطعام، وأمَّنَّاكم من الزوال أو من سيئ الأسقام.. وأما الموت فقد انتهى فأنتم خالدون.. في دار السلام آمنون.

(١) انظر: الطبري١٣/ ١٦٣، تفسير القرطبي١٦/ ٢٣٦.

المشهد التاسع

إليكم ختم الكرامة.. كبرى الجوائز وعنوان السعادة.. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة

إليكم يا أيها الفائزون ما هو أكبر من الخلود.. وما أدراكم ما هو؟[1]

يحدث للمتنعمين من الفائزين بجنات الخلد فرحةٌ أعظم.. وتتجدد لهم البشائر في حالةٍ عظيمةٍ من حالات تقلبهم في النعيم المقيم، إذ «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!».

يا لها من لحظةٍ عظيمةٍ حينما يخاطب الجليل جلَّ عن التجسيم والتمثيل! حينما يخاطب عباده في الجنة، فيعظم نعيمهم حتى يبلغ غايته.. ويتعاظم سرورهم حتى يصل منتهاه.. أَسْعِدْ قلبك بهذه المفاجأة.. يناديهم ربنا الكبير المتعال..

- «فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك!»..

إنه حب الله ﷻ الذي ملأ أفئدتهم، فكيف لا يجيبونه وحبه كان شعورهم الذي ينامون عليه، ويستيقظون عليه.. وهل رأوا الخير إلا من جهته.. وهل وصلهم البر إلا

(١) القصة في الصحيحين. انظر: البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩)، والزيادة عند الحاكم في المستدرك (٢٧٦).

من يديه.. وهل عاملهم إلا بواسع الكرم وسابغ الجود.. فكيف لا يكون حبه والوله به شعورهم الفياض الذي ملأ عليهم كل جوانحهم وأفئدتهم..؟!

أشار القلبُ نحوك والضميرُ ... وسرُّ السِّرِّ أنت به خبيرُ

وإني إن هتفت بكم أُنادي ... وفي زمن السُّكوت لكم أُشيرُ

أيا مَنْ لا يُضاف إليه ثانٍ ... أتاك الوالهُ الصَّبُّ الفقيرُ

- «فيقول: هل رضيتم؟».

الله! الله! ربُنا يسألنا -إذ نحن في الجنة- هل رضينا.. ربنا هو الذي يسأل.. الجليل العلي العظيم.. هو الذي يسأل: هل رضينا.. ولسنا نحن الذين نقول: ربنا أرضيت عنا.. أرأيت كرم الجبار القهار الكبير المتعال؟ وبخجلٍ وشعورٍ عظيمٍ بالامتنان يردون.. بخجل بالغٍ:

- «فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟»..

وبضعف المخلوق أيضًا يقولون ذلك، كأنهم يتلهفون: ماذا بقي يا رب لنعطى فوق هذا؟ ولكن الجليل يؤكد لهم أن هناك شيئًا عظيمًا سيعطيهم إياه.. ويشوقهم لذلك..

- «فيقول: [تشتهون شيئًا فأزيدكم].. أنا أعطيكم أفضل من ذلك»..

وبتلهفٍ شديدٍ يبادرون إلى سؤال ربهم الجليل الكريم..

- «قالوا: يا رب وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟»..

- «فيقول: [رضواني أكبر].. أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»،

يا لهذه النعمة.. نعمة الرضا الإلهي من الخالق الجليل الكبير للعبد البسيط الفقير.. فـ"رضاه سبب كلِّ فوزٍ وسعادةٍ، وكلُّ من علم أن سيده راضٍ عنه كان أقرَّ لعينه، وأطيب لقلبه من كل نعيمٍ لما في ذلك من التعظيم والتكريم"[1] وهاتف الحق يهتف: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

إنه يوم المزيد.. أعلن العجز عن وصف ذلك النعيم المجيد:

◆ **قمة النعيم: إنه يوم المزيد.. وهو وقت الزيادة على الجنة.. فما الزيادة على الجنة؟**

لقد استقرَّ بك المقام، وجرت عليك الأنعم العظام، وحلَّ بك من السعد ما لا يترجمه الكلام، وطاب لك الحال، وتوالت عليك الأفضال، وأنت على حالك تزداد كلَّ يومٍ تنعُّمًا في غير مللٍ أو سأم، وتظن أن ذلك هو غاية النعيم وليس بعده بعدُ..

وبينما كنت في مرابع قصورك.. وجنانك.. وحورك.. تتنعم.. تحادث صاحبًا.. أو تلاعب حوراء.. أو تسابق الطيور.. أو تغتدي بسباحةٍ في الجداول والبحور.. ولكن لا كأجمل نعيمٍ في الدنيا.. سمعت في أرجاء الجنة إعلان الريادة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فأقبل بعضكم معاشر أهل الجنة على بعضٍ تتساءلون.. ما الزيادة؟

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٢٣٠.

وأتاكم الجواب من رب الأرباب.. الملك الأعلى الوهاب.. وتلذذت أسماعكم بخير جواب.. فيفجؤك نداء «منادٍ: إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه»..

فتتساءل أي شيءٍ هو هذا الموعد.. وتسمع جواب تساؤلك في نداء الحق -عزَّ جاره-:

يا أهل الجنة «تريدون شيئا أزيدكم؟»..

فيطرب قلبك فرحًا، وترى أهل الجنة من حواليك تخفق أفئدتهم سرورًا وحبورًا، ولا تدرون مم تتعجبون، أو بأي أي شيءٍ تفرحون: أمن سماعكم لكلام المولى العزيز الكبير المتعال.. جل عن الشبيه والمثال.. أم من الوعد الجديد الذي تسمعونه، وتتعجبون أكثر.. فما الشيء الذي يمكن أن يزيد على ما أنتم فيه، ثم تطرحون تساؤلاتكم التي تتضمن تلهفًا لمعاينة هذه الزيادة، كما تتضمن إكبارًا لما أنعم به عليكم من منٍ وآلاء في عرصات القيامة وساعات العناء..

تقولون: «ألم تثقل موازيننا؟».. ربنا..ربنا «ألم تبيض وجوهنا؟»..

ربنا.. ربنا «ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟» وتتشوفون.. عند ذاك يهولهم أن «يُكْشَفَ الحجاب» و..و..«يتجلى لهم تبارك وتعالى فينظرون إليه».. فتتنعمون بما يعجز اللسان أن يصفه لأن الموصوف فوق كلِّ شيءٍ.. إنكم تتنعمون بلذة النظر إلى وجه ربكم الكريم.. وهناك.. ما أُعطيتم شيئًا أحب إليكم من النظر إلى ربكم

عز وجل[1].. قد رفع الستر والحجاب.. وعظم النعيم وطاب.. وحسن المنقلب والمآب.. فيا لخيبة المحجوبين عن ذاكم الفضل المبين!.. ويا لخسارة المطرودين من حضرة رب العالمين!.. ويا لبؤس كل محروم مفتون.. فرط في الغالي وآثر الدون!..﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾[المطففين: ١٥].

إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة.. والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة[2]..

افتح عين البصيرة، وتصور الأمر على حقيقته:

حين صارت الصحف في أيمانكم، حين ثقلت موازينكم، حين بُيِّضَت وجوهكم..

حين جاوزتم جسر جهنم، حين أُدخلتم الجنة وأُعطيتم فيها ما أُعطيتم من الكرامة والنعيم، كل ذلك كان قليلًا في جنب الزيادة، والوعد الإلهي هو:﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس: ٢٦]، أما الحسنى.. فهي الجنة.. ومعها الزيادة عليها..

أيها المحسنون: الآن وقت الوفاء فـ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾[الرحمن: ٦٠] فإليكم الحسنى، إليكم الجنة﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾[الحجر: ٤٦].

أيها المحسنون: قَرُّوا عينًا فقد زادكم من كرمه شيئًا فوق الحسنى، وهي الزيادة عليها..

---

(١) أحاديث الرؤية في البخاري ومسلم غير ما في الآيات. والكاتب يذكرها كما جاءت بأسلوب الكتاب. بغض النظر عن الدخول في تفاصيل المعاني.

(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص: ٣٤٥.

ومن الزيادة عليها: أن يعطيكم ويحبوكم غفرانًا ورضوانًا، وأن يُضَعِّفَ ثواب أعمالكم، فيعطيكم بالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف وزيادة على ذلك..

أيها المحسنون: كيف تظنون؟ فإن من الزيادة أن يعطيكم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنكم، وفوق ذلك ما أخفاه لكم من قرة أعين..

كل ذلك من زيادات عطاء الله ﷻ لكم.. ولكن أعظم الزيادة إكرامكم بالنظر إلى وجهه الكريم..﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]..

الله.. ماذا يقول العبد الأواه؟

«ولله واديها الَّذي هو موعدُ الـ ◆◆◆ مزيدِ لِوَفْدِ الحُبِّ، لو كُنْتَ مِنْهُم

بذيَّالك الوادي يَهيمُ صبابةً ◆◆◆ مُحِبٌّ يرَى أنَّ الصَّبابةَ مَغْنَمُ

ولله أفراحُ المُحبين عندما ◆◆◆ يُخَاطِبُهم من فوقهم، ويُسَلِّمُ

فيا نظرةً أَهْدَتْ إلى الوجهِ نَضْرَةً ◆◆◆ أَمِنْ بعدِها يَسلو المحبُّ المُتيَّمُ»[1]

أيا خاطب الجنة وحبيبها: هاهنا حالةٌ تعجز الكلمات عن تصويرها:

كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها؛ ذلك حين يتحقق للسعداء حالةٌ من السعادة لا تشبهها حالة حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم!

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ١/ ١٢.

هـذه الوجـوه الناضـرة، زاد في نضارتهـا أنهـا إلـى ربهـا ناظـرة، ومـا لهـا لا تتنضـر وتتجمـل وتزهـر وهـي إلـى جمـال ربهـا تنظـر؟ فـأي مسـتوى مـن الرفعـة هـذا؟! أي مسـتوى مـن السـعادة؟!

إن روح الإنسـان لتسـتمتع أحيانًـا بلمحـةٍ مـن جمـال الإبـداع الإلهـي في الكـون أو النفـس، تراهـا في الليلـة القمـراء، أو الليـل السـاجي، أو الفجـر الوليـد، أو الظـل المديـد، أو البحـر العبـاب، أو الصحـراء المنسـابة، أو الـروض البهيـج، أو الطلعـة البهيـة، أو القلـب النبيـل، أو الإيمـان الواثـق، أو الـصبر الجميـل، إلـى آخـر تجليـات الجمـال في هـذا الوجـود.. فتغمرهـا النشـوة، وتفيـض بالسـعادة، وتـرف بأجنحـةٍ مـن نـورٍ في عوالـم مجنحـة طليقـة. وتتـوارى عنهـا أشـواك الحيـاة، ومـا فيهـا مـن ألـمٍ وقبـحٍ، وثقلـة طيـنٍ.. وإذا السـعادة تفيـض مـن القلـب علـى الملامـح، فيبـدو فيهـا الوضـاءة والنضـارة.. فكيـف بهـا حيـن تنظـر إلـى جمـال الكمـال؟.. كيـف بهـا وهـي تنظـر -لا إلـى جمـال صنـع الله - ولكـن إلـى جمـال ذات الله ﷻ؟

ألا إنه مقامٌ يحتاج أولًا إلى مددٍ خاصٍّ من الله ﷻ ليتحقق.

ويحتـاج ثانيًـا إلـى تثبيـت مـن الله ﷻ ليملـك الإنسـان نفسـه، فيثبـت، ويسـتمتع بالسـعادة، التـي لا يحيـط بهـا وصـف، ولا يتصـور حقيقتهـا إدراك ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣]..

فأما كيف تنظر؟ فذلك حديثٌ لا يخطر على قلب يمسه طائفٌ من الفرح الذي يطلقه النص القرآني، في القلب المؤمن، والسعادة التي يفيضها على الروح، والتَّشوُّف والتَّطلُّع والانطلاق!"[١].

◆ **أيا حبيباه:** هل تبكي من الفرح؟ أم من الشوق؟ أم تقول: ربِّ أقم الساعة؟ إن أفضل الزيادة التي تلاقيكم وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم؛ فإنها زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطيتموه.. زيادةٌ لا تستحقونها بعملكم، بل بفضله ربي جلَّ وعزَّ ورحمته.. [٢].

---

(١) انظر الظلال، ص:٣٧٧٠ بتصرف، وتتمة كلامه: "فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة ؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته؟!

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك. وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور -مجرد تصور- كيف يكون ذلك اللقاء.

وإذن فقد كان جدلًا ضائعًا، ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم...حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام. لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض؛ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة. فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات، فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان، فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات، ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا! فما لنا نخوض في أمرٍ لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟!

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك، ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض؛ فهذا التطلع ذاته نعمة، لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم".

(٢) انظر: الطبري ١١/ ١٠٨، تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٥.

كلُّ ذلك لم يكن شيئًا فيما رأيتم.. كرِّرْ تصوُّرَ ذلك، ثم اهتف معي مشتاقًا محبًّا راجيًا في كرم ربك العظيم، اهتف كما هتف النبي ﷺ من قبلك: «اللهم إني أسألك لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيمِ، والشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»[1].

(١) النسائي (١٣٠٥)، أحمد (١٨٣٢٥)، ابن حبان (١٩٧١)، وقوى إسناده المحقق، الحاكم (١٩٢٣)، وقال: "صحيح الإسناد"، وصحَّحه الحويني في "المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة" (١/ ٣٥٤).

المشهد العاشر

فانظر إلى آثار رحمة الله ﷻ
بين عبدٍ أوبقته أعماله.. وأنقذته رحمة ربِّه فازدهرت آماله

اشهد آخر أهل الجنة دخولًا الجنة وانظر إلى آثار رحمة الله ﷻ:

وأطلَّ صاحب القلب المنيب وأصحابه على خارج الجنة وهم في نعيمهم.. أطلوا ليشهدوا رجلًا لم يدخله الله ﷻ الجنة بعدُ، فرأوه «يخرج من النار حَبْوًا»[1]، «ليس له من العمل ما ينهض به فخرج يحبو»، يسعى معتمدًا على يديه ورجليه عسى أن يبتعد عنها.. ويمر في هذا المشهد بخمس مراحل:

المرحلة الأولى: الزحزحة عن النار فوز وأي فوز..

يرحمه الله ﷻ فيتجاوز النار، فأيُّ فوزٍ عظيمٍ قد حازه، «فإذا ما جاوزها»، وشعر بلذة فوزه «التفت إليها»، فعبَّر عما يكتنُّ لديه من مشاعر الابتهاج، ويظهر ما وقع في نفسه من سرورٍ وهَّاج:

---

(١) القصة بتفاصيلها عند: البخاري (٦٥٧١)، (٧٥١١)، مسلم (١٨٦)، الترمذي (٢٥٩٥)، ابن ماجه (٤٣٣٩)، ويحتمل أن تكون لرجلٍ دخل النار ثم أُذن له بالخروج منها، أو لآخر رجلٍ يجتاز الصراط.

«فقال: تبارك الذي نجاني منك.. [الحمد لله الذي نجاني منك]، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين»..

وأنتم يا صاحب القلب المنيب وأصحابك في الجنة تشهدونه وترجون من الله أن يدركه برحمته ولطفه، ولربما قلتَ لما رأيتم نجاته، وسمعتم قوله: إي وربي حقًّا لقد أعطاك الله ﷻ شيئًا عظيمًا، ومنادي الحق ينادي: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فقد زُحزح هذا الرجل عن النار.. ولنتابع مسيرته:

المرحلة الثانية: طمع الضعيف، وكرم الكريم:

رأيتموه وقد تجاوز النار، ولكنه «مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ»، اللهم إني أعوذ بنور وجهك من لفحاتها.. هذه مجرد إطلالتها من بعيدٍ قد قشبته فكيف بمن انغمس فيها؟ تأمل واهتف بخشوع: اللهم أجرني من النار.

وربما عجبتَ أيها المنيب من الرجل يدعو ربه ﷻ في ذلك اليوم ويُلِحُّ «فلا يزال يدعو الله» ليبعد وجهه عن النار.. وبعد اجتهاده في الدعاء يرحمه الله..

«فيقول -الله عزَّ جاره-: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ.

فَيَقُولُ: لَا! وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ» فيستجيب الله له.. «فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ».. فيا لسعة رحمة الرحمن الرحيم!..

المرحلة الثالثة: تابع المشهد: نعيمٌ جاذبٌ.. وهو مجرد نعيمٍ خارج الجنة:

ثم يمضي عليه الوقت وهو بين الطائفتين.. بين الدارين.. عندها يناجي اللطيف الخبير فيقول: «يا رب ما لي هاهنا؟

فيقول: يا ابن آدم ألم تكن تسألني أن أزحزحك عن النار؟ [هذا ما كنت تسألني يا ابن آدم]..

قال: بلى يا رب..»، ولكن رحمة الرحمن الرحيم تغريه فيبقى يدعو حتى يقول:

قال: يا رب أين مثلك؟».. فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ليس كمثلك شيءٌ في عفوك، وبِرِّك، ورحمتك..

تابع مشهده حامدًا مسبحًا فإنه عندما يصرف وجهه عن النار:

«تُرْفع له شجرةٌ..» كرمٌ من الله ﷻ عليه، ونعمةٌ يرسلها إليه..

«فيقول: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشجرة.. فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وأشرب من مائها»..

فيقول الله عز وجل: يا بن آدم لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا..

فيقول: لا! يا رب. ويعاهده أن لا يسأله غيرَها».

فهل يستجيب الرحيم له؟ هل يستجيب له؟..نعم! نعم!.. وكيف لا «وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ له عليه، فيدنيه منها. فيستظلّ بظلّها ويشرب مِنْ مَائِهَا».. ويلبث على ذلك ما شاء الله..

ولكنه يرى شيئًا آخر وهو تحت هذه الشجرة، وينعم الكريم الودود عليه برؤية نعيمٍ أعظم مما هو فيه.. إذ «ترفع له شجرةٌ هي أحسنُ من الأولى»، فلا يصبر وهو يرى بهاء تلك الشجرة ووارف ظلالها وبارد فيئها ومائها!

تصور!.. مجرد شجرةٍ خارج الجنة، ولا يستطيع أن يصبر عنها ولمَّا يرى الجنة بعد.. عند ذاك تسمعه ينادي بتلهفٍ:

«أي ربِّ! أدنني من هذه لأشربَ من مائها، وأستظلَّ بظلها»..

«فيقول -الله عزَّ جاره-: يا ابن آدم ألم تعاهدْني أن لا تسألني غيرها؟»..

وكعادته في التذلل.. يقول: «لا أسألك غيرها».

وتدركه رحمة الرحمن الرحيم..«فيقول الله ﷻ له: لعلي إن أدنيتُك منها تسألُني غيرَها».

«فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا».

ومن تحت هذه الشجرة العظيمة ذات الماء العذب والظل الظليل.. يُنْعِمُ المتفضِّل الكريم عليه فيرى نعيمًا آخر أعظم مما هو فيه؛ إذ « تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ» فيقوم وقد تذوق لذَّة كرم الله الجليل، ورأى إجابة ربه لسؤاله.. وجوده وعظيم نواله..

«فيقول: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا»..

ولا ينسى أن يضيف عبارته المعتادة التي تحمل معنى الطلب أكثر مما تحمل المعنى الذي يظهر منها، فيقول رب: «لا أسألك غيرها»..

«فيقول: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟..

قال: بلى. يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه يَعْذِرُهُ لأنه يرى مالا صبر له عليها فيدنيه منها»..

ويبقى يتنعم بذلك.. وإن ذلك لنعيمٌ.. وحسبه أن يتنعم بأن يدعو ربه، وربه يجيبه.. وأنتم ترون أهل النار يحاولون أن يدعوا فيقول الله ﷻ لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٨] إن مجرد دعائه.. وإجابة ربه له هو النعيم بذاته فكيف وقد قرَّبه ثم قرَّبه ثم قرَّبه؟! كيف وقد أدناه ثم أدناه ثم أدناه؟!

المرحلة الرابعة: إنه باب الجنة..إغراء لا يقاوم:

ولكنه ما زال بعيدًا عن الجنة.. وهو يراها عن بُعْدٍ.. عندها يطمع في رحمة ربه ﷻ أكثر فيتدلل، ويتذلل ويناجي ربه ويتوسل..

فـ«يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة».. انظر لطمع ابن آدم، ولا تعجب من ذلك ولكن اعجب من سعة رحمة الرب الرحيم..

إذ إن ربه جل وعز «يقول: أليسَ قد زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ وَيْلَكَ ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ»، ولكنه لا ييأس وهو يرى رحمة الرحمن الرحيم -عزَّ جاره- فيظل يدعو.. فلا يزال يدعو.. حتى تدركه رحمة الله ﷻ مجددًا..

«فيقول -الله له-: لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ تَسْأَلُنِي غَيْرَهُ».

«فيقول: لا! وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ»..

لقد حلف ولكنْ أيحلف أحدٌ ألا يسأل الرحمن الرحيم من رحمته ثم يستطيع أن يبر في حلفه...؟ كلا! «فَيُعْطِي اللهَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ، فَيُقَرِّبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، [فإذا دنا منها انْفَهَقَتْ[1] له الجنة.. فَإِذَا رَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ]».

المرحلة الأخيرة: دخول الجنة:

والآن وقد دنا من الجنة ينظر إلى أبوابها، ويراها، ثم إنه «يَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فما يقدر أن يحتمل، وتُحَرِّكُه معرفته برحمة ربه جل وعز «فيقول: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا» ويكرر الدعاء فيقول:

«رب أدخلني الجنة» ويذكِّره ربه الرحمن الرحيم بعهده..

«فيقول: أو ليس قد زعمت أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ.. [وقد أعطيتَ عُهُودَك ومواثيقَك أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ].. وَيْلَكَ يا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ»، فيكرر على ربه ﷻ ويلحُّ وهو يعلم الآن كم هي سعة رحمة ربه، إنها تفوق ما يملكه من تصورٍ، فليمضِ في دعائه وابتهالاته..

«فيقول: يا رَبِّ! لَا تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ» ...

(١) انفهقت: بفاء وهاء وقاف - انفعال: أي: انفتحت واتسعت، انظر حاشية مسند الإمام أحمد ٥/ ٥٩٩.

أَسِلْ الدمع على موقفٍ عظيمٍ كهذا الموقف..

لـ ـد عـدَّ نفسـه أشـقى خلـق الله وهـو خـارج الجنـة، وعنـد ذاك أكثـر مـن الإلحـاح بالدعـاء والتضـرع.. وقـد عـوَّده ربُّـه الرحمـةَ والغفـرانَ والإجابـة إذا لـم يقنـط مـن رحمـة ربـه.. «فلا يـزال يدعـو حتـى يضحـك -ربـي جـلَّ جلالـه وتعالـى عـن المثـال- فـإذا ضحـك منـه أذن لـه بالدخـول فيهـا».

وأنـت تشـهد هـذا المنظـر مسـبحًا حامـدًا أن نجـوت مـن قبـل.. هـا أنـت ذا تـراه الآن وقـد تلقـاه الله ﷻ برحمتـه وأخيـرًا أذن لـه الجبـار بدخـول الجنـة.

سيل الكرم ينهال:

بعـد أن يـأذن لـه ربـه -عـزَّ جـاره- بدخـول الجنـة يُقطعـه مُلـكًا عظيمًـا في الجنـة، فيقـول لـه: «اذهـب فادخـل الجنـة»..

«فيأتيهـا فيُخيـل إليـه أنهـا ملأى فيرجـع.. فيقـول: يـا رب وجدتهـا ملأى» هـل سـمعتَ هـذا؟ بـات الآن يعتقـد أن لـه حقًّـا فيهـا.. يـا لكـرم الرحمـن..

«فيقول الله تبارك وتعالى له: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ»..

«فَيَأتِيهَـا فَيُخَيَّـلُ إِلَيْـهِ أَنَّهَـا مَلأَى، فَيَرْجِـعُ.. فَيَقُـولُ: يَـا رَبِّ وَجَدْتُهَـا مَلأَى».. فيُكـرر الله ﷻ لـه:

«فيقـول الله لـه: اذْهَـبْ فَادْخُـلِ الْجَنَّـةَ».. ولقـد وردت الروايـة لتكمـل لنـا القصـة

بشيءٍ عظيمٍ دار بين الله -عزَّ جاره- وبين عبده.. إذ يقول النبي ﷺ واصفًا الرجل وقد رجع إلى ربه ليسأله أين يمكنه أن يحطَّ عصا الترحال في الجنة.. يقول: «فأقبل عليه عابسًا فقال: وهل أبقيت لي شيئًا؟».. سبحانك اللهم.. حلمك بعد علمك.. وعفوك بعد قدرتك.. وسترك عن كمال عزتك.. الرجل يُقبل عابسًا كعادة من أصابه الهمُّ والغمُّ.. لا لأنه لم يرض بما قسم الله ﷻ.. ولكنها طبيعة البشر..

تمنَّ.. تمنَّ.. هل نذكرك بالأمنيات؟

فعند ذاك «يجيء بعدما يدخل أهل الجنةِ الجنةَ فيقال: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ! كَيْفَ؟ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟» لم يعد لي مكانٌ فيها.. فيؤمر أن يدخل فيها وتراه يقوم يحاجُّ ربه ﷻ كأن الحق قد صار له، فيؤمر بالدخول ليرى ما أعدَّ له..

«فإذا دخل فيها فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ أي الدنيا. فيقول: نعم! فيقال له: تمنَّ.. فيتمنى.. تمنَّ من كذا.. فيتمنى.. ثم يقال له: تمنَّ من كذا.. فيتمنى.. [ويذكِّره الله ﷻ سل كذا وكذا] حتى تنقطع به الأماني، [فإذا انقطعت به الأماني]»..

تصوَّرِ المشهد لم يعد يجد ما يتمناه انقطعت كل الأماني لديه..

انظر إليه مجدَّدًا «يتمنى فيقول بلسانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ، وعقلٍ مجتمع»، نعم يعطيه الله ذلك حتى يتمكن من أوفر الأمنيات، وينال أعظم النِّعم والهِبَات.. «يتمنى فيقول

بلسان طَلْقٍ ذَلْقٍ وعقل مجتمع: أعطني أعطني كذا.. حتى إذا لم يجد شيئا لُقِّنَ فقيل له: قل كذا.. قل كذا فيقال له: هو لك ومثله معه».. ويذكِّره الودود بما ينبغي أن يتمناه.. أرأيتم كريمًا كالجبار في كرمه.. إنه الله!.. إذا أعطى أغنى.. وإذا وهب أوعى..

«فيقول: يا ابن آدم ما يَصْرِينِي منك» ما يقطع أمانيك؟ ثم يعطيه الله ﷻ ما يقطع أمانيه قطعًا..

عند ذاك يعطيه الله ما يقطع أمانيه به.. فـ«يقول الله له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لمَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: [بَخٍ] نعم، أي رب»، ويغبط نفسه ولا يملكها من شدة الفرح فيقول: بخٍ.. كأنه يقول: أمعقول؟!

«فيقال: ذلك لك» ثم يغدق الله ﷻ عليه أكثر.. انظر واستمع واهتف: اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك.. ربِّ وعِزَّتِك لا غنى بي عن بركتك.. ربِّ وعِزَّتِك لا غنى بي عن بركاتك.. ثم تابع المشهد:

فيقول العبد وهو لا يكاد يصدق، وتأخذه طبيعته البشرية.. فيقول: «يا رب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ حتى ضحك النبي ﷺ وهو يحدِّث بالقصة فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!».

فيتهاطل عليه الكرم الإلهي:

«فيقال: ذلك ذَلِكَ وَمِثْلُهُ [معه] وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ» كيف يكون شعوره وهو يسمع كلمة ومثله في كلِّ مرة؟

لما وصل العد إلى الثالثة إلى الخامسة أي خمسة أمثال ملك الدنيا يطير قلبه فرحًا وطربًا، فيقطع الكلام.. تصوَّرِ المشهد واعجب من رحمة الرحيم!.. وافتتان العبد بكرم الكريم..

«فيقول: أي رب رضيت» فيزيده الله أعظم من ذلك «فيقال له: إن لك هذا وعشرة أمثاله» نعم، هل تريد إعادة سماع ما سمعتَ؟ فاسمع.. يقول الله له: «اذهب فإن لك مثلَ الدُّنيا وعشرةَ أمثالِها».

◆ **أيا خاطب الجنة:** أتعرف من ذلك الرجل «فذلك أنقص أهل الجنة حظًّا»، عندها لا يملك الرجل نفسه، ولا يصدِّق فيخطئ من شدة الفرح فيقول: «رب أتضحك مني وأنت الملك»؟! «لِمَ تهزأ بي وأنت ربي»؟

انظر إلى هذا الكلام المتدلل من هذا الرجل.. علم مكانه من ربِّه وبسطه له بالإعطاء.. استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك.. وكذلك خاف أن يُجازى على ما كان منه في الدنيا من التساهل في الطاعات، وارتكاب المعاصي والموبقات.. كفعل الساخرين فكأنه قال: أتجازيني على ما كان مني من سخريةٍ بسخريةٍ مماثلة؟[1]..

«فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر»..

«فيقول: أي رب! رضيت.. فيقال له: لك مع هذا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ».

(١) انظر: فتح الباري ١١/ ٤٤٤.

والآن تابع مشهدَه متعجبًا من كرم ربه الجليل، تابعه وهو يدخل أحد قصوره، حتى إذا أخذ مكانه «تدخل عليه زوجتاه من الحور العين فتقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك»، فكيف تصنع هذه الكلمة بصاحبها؟! كيف تصنع به؟! عندها لا يملك إلا أن يقول: «ما أعطي أحدٌ مثل ما أعطيت».

وهكذا يرضى بما أعطاه الله ﷻ له.. حتى قال ﷺ: «فيرضى حتى أنه أعطاه شيئًا ما أعطاه أحدًا من أهل الجنة. فيقول: لو أُذِن لي لأدخلت على أهل الجنة طعامًا وشرابًا وكسوة مما أعطاني الله ولا ينقصني شيئًا»، أعطاه شيئًا ما أعطاه أحدًا من أهل الجنة، أي: ظن أنه خير أهل الجنة منزلة، وأن عنده ما ليس عندهم فكيف بمن هو أعلى منه درجة؟ اهتف آملًا راجيًا: اللهم يا أرحم الراحمين: أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبينا محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد.

واعجبْ من ذلك.. أيها المشتاق: سِرْ بأحلامك.. بل طِرْ بها إلى حيث شئتْ.. فلن تبلغ نهاية الملك الكبير الذي ينتظرك مهما حاولت لأنه يتجاوز آفاقك القاصرة، وأحلامك البسيطة..

أجل أيا حبيباه: إذا كان هذا أدناكم منزلةً معاشر أهل الجنة -وحاشاكم أن يكون فيكم دني-.. فكيف من فوقه.. أشعل مصابيح الشوق.. وأوقد معها دموع الإشفاق والخشية والأمل والرجاء.. وقل: يا رب.. يا ذا الجلال والإكرام..

هـل إلى العفـوِ يـا إلهي سبـيلُ ... فَنِيَـتْ رحـلتي وزادي قليـلُ

واحتوتني الهُمُـومُ من كلِّ صوبٍ ... وطَوَاني الأسـى المُمِـضُّ الطَّويلُ

ربِّ جئـناك والنُّفـوسُ حَيَـارى ... حيثمـا مالـتِ الرِّيـاحُ نميـلُ

كي تحيـلَ الظَّـلامَ نـورًا ومن ذا ... يرفـعُ الشَّـرَّ إن طغـى أو يحيـلُ

ختام زفاف المؤمنين..
تجدد النعم، ودوام الحمد للمنان المتين

◆ **استمع إلى الكون ومن فيه مسبحين مُتَرنمين:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

◆ الحمد لله والثناء والمجد يبدأ به الكون وينتهي إليه:

والآن -يا صاحب القلب المنيب- قُضِي الأمرُ وقَرَّت نفسك بالحياة الخالدة، ورأيت أن الله ﷻ لم يخلق السَّمَوَات والأرض وما بينهما لعبًا، ما خلقهما إلا بالحق والقسط والعدل، وهاهو ذا القانون العظيم أمام عينيك ظاهرٌ في حكمه في أهل الجنة والنار..

أُنْزِل كلا الفريقين في المحلِّ الذي يليق به، ويصلح له.. إنه الله -عزَّ جاره- الحكم العدل ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: ٢٥].

عندها لربما استذكرت -يا تالي القرآن- قول ربِّك ﷻ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية: ٢٢] طالما كنت تقرؤها آيةً مكتوبةً، فهاهي حقيقةٌ واقعةٌ أمامك، فقد جُوزيتْ كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون.

واكتمل مشهد الخلق عن حياةٍ أبديةٍ لكلٍّ منهم.. كلٌّ في مثواه.. ورأيت الختم البديع لهذا المشهد في الصورة العظيمة الآتية: ترى أهل النار في عذاباتهم، بينما ترى أهل الجنة يتقلبون في نعيمهم وملكهم، ويتلاقون بأحبائهم، يزورون الأنبياء، ويلتقون بالصديقين والأصفياء، وينعَّمون بأنعم عيشةٍ وأروع هناء، في شغلهم من النعيم المقيم فاكهين سعداء، مسبحين لله حامدين، هو أهل المن والعطاء، وإذا رفعت طرفك ترى العرش، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] ترى العباد المكرمين من الملائكة في ذلك اليوم حافين محدقين من حول العرش المجيد، وألسنتهم تلهج بالتسبيح والتمجيد والتحميد، تنظر إليهم، تسمع أصواتهم وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه، وينزهونه عن النقائص والجور، يسبِّحون متلذذين بذلك.. يصلون حول العرش شكرًا لربهم، وذلك بعد أن ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥]، فقد فصل في القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل بين أهل الجنة وأهل النار.

عندها "نطق الكون أجمعه: ناطقه وصامته لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائلٍ بل أطلقهن فدل على أن جميع الخلائق شهدت له بالحمد"[1].. ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]..أمام ذاك الفضل العظيم، والنعيم المقيم، والملك الواسع

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٠.

العميم.. غمر فؤادَك الشُّعورُ بما حباك به المولى الودود الغفور.. فلم تجد شيئًا تعبِّر به عن شكرك إلا ما علَّمك ربك -عزَّ جاره-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]

الحمد لله رب العالمين..

خاتمة القصة

فراقٌ مؤقت غير بعيد.. لنعيمٍ مجيدٍ.. إن شاء الله:

الآن قد عُدْتَ -أيا حبيباه- من التقلب في أعطاف هذا النعيم العظيم، تقلبتَ فيه، ووجدتَ لذته بمجرد الوصف والقراءة فكيف سيكون حالك عند المعاينة؟! كيف ستكون عند انغماسك فيه؟! جعلني الله وإياك من أهله، وأذاقني الله وإياك حلاوة الفوز الحق به..

◆ عدتَ -أيا خاطب الجنة- من هناك إلى دنياك.. فها أنت ذا في زحمة أثقال الأرض ومثقلات الذنوب، ورزايا الأوزار، وغُرْبَةٍ قَلَّ معها الصديق الناصح في طريق الإخلاص، وما يصيبك في هذه الحياة من ابتلاء ولُغُوب.. ترى الدنيا من حواليك بفتنتها تغريك، تحاول إغواءك، ترهبك حتى تستسلم لها، وتستنيم لخدائع زخارفها وهي ذات الغرور الدائم..

◆ أيا حبيب الجنة: لقد خاطبتُك، ونصحتُك، وأنا أعلم أنني كنت أخاطب نفسي وأنصحها في شخصك، أتراه يظهر بعد هذا الوصف الرائق المُشَوِّقِ شوقُك لبشرى ربِّك ﷻ؟

هل ستري من نفسك مسابقةً إلى نعيم جنةٍ عرضها السَّمَوَات والأرض بتوبة نصوحٍ، وإيمان صادقٍ؟ ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وفي هذه القصة للنساء سبقهن.. لهنَّ هممٌ لا منتهى لكبارها.. وهمتهن أجلُّ من الدَّهرِ:

وكلُّ ما ذكرناه عن هذا الشاب القانت يسري مثله على الفتاة أو المرأة القانتة العابدة فإن الله -عزَّ جاره- ذكر حقَّها وأجرها كما ذكر أجر الرجل.. وحسبنا في هذا ما جاء في الآية الجامعة التي نزلت بسبب سؤال أم سلمة رضي الله عنها:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥]

ولا تختلف المرأة عن الرجل في شيءٍ من ذاك النعيم، إلا ما كان من خصوصية واضحة لها، وذلك كأن لا يكون لها زوجٌ في الدنيا كحال مريم البتول -عليها السلام-، أو تكون زوجةً لرجل كافر كحال امرأة فرعون -عليها السلام-.. ففي هذه الحالة يزوِّجها الله -عزَّ جاره- برجل من أهل الجنة، كما روي في هاتين أن الله يزوِّجهما بالنبي ﷺ، وليس الكتاب ورادًا في بسط هذه القضية، وإنما أردت الإشارة؛ لئلا يظن ظانٌّ أن الكاتب يرتضي ما وصلت إليه بعض الآراء من جمود حتى حجروا بعض نعيم الجنة على الرجال دون النساء، وليس هذا من الدِّين، بل الدِّين كلُّ الدِّين تلخص في قول الولي

المتين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، ولكن لأن الكِتاب أخذ منحى الكلام عن الشاب المنيب، فقد توجَّه وجهةً ينبغي أن يُوَلَّاها.

أيا حبيباه: فُتِحَتْ ميادين السباق.. فهل من مسابقٍ للذيذ العناق؟

◆ **أي أخاه:** لقد تملك الشعور بنعيم الجنة على المتسابقين أنفسهم، وسيطر على حياتهم، إنهم المتسابقون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان.. سيطر عليهم التفكير في السباق حتى جعلهم يُبْدعون في طلب كلِّ وسيلةٍ ربانيةٍ، يَصِلُون بها لتحقيق غايتهم السامية.. انظر إلى أحدهم فيما نحسب، إنه أبو سليمان الدَّارَانِيُّ ﷺ يحكي كيف صار الشوق إلى الجنة شعورًا فيَّاضًا يملأ عليه جوانحه، ويسيطر عليه منامًا ويقظة.. اسمعه وهو يقول: بينا أنا ساجدٌ.. إذ ذهب بي النوم.. فإذا أنا بها -يعني حوراء من الحور العين- قد ركضتني برجلها فقالت:

حبيبي أترقدُ عيناك والمَلِك (قيوم) ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم؟!

بؤسًا لعينٍ آثرت لذَّةَ نومِها على لذَّةِ مناجاة العزيز..

قم، فقد لقي المحبون بعضهم بعضًا فما هذا الرقاد؟

حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أُرَبَّى لك في الخِدْر منذ كذا وكذا؟ فوثبتُ فَزِعًا.. وقد عرقت استحياءً من توبيخها إيَّاي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي[1]..

(١) انظر: شعب الإيمان ١/ ٤٥٨.

فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه:

كان الدَّارَانِيُّ رحمه الله يحكي نموذجًا في المسابقة إلى الله ﷻ بأعمالٍ بينك وبين المولى العزيز، وهذا يتقنه كثيرون، ولكن العقدة التي ما زلنا نطلب لأنفسنا منها فكاكًا تتمثل في عدم مسارعتنا إلى الخيرات بِذِلَّة أنفسنا لبعضنا، وإعلاء شأن الأخوة الإيمانية كما أعلاها الله-عزَّ جاره- بيننا، ونبذ التعصب الذي حَلَق ديننا حلق الشَّعر، ونزع لعاعة الدنيا وقذارتها من قلوبنا..

◆ **أيا حبيباه:** هاهو ذا المضمار أمامك قد صار أجلى من الشمس في ضحاها.. والنهار إذا جلاها.. ولكننا عنه في غفلٍ مريعة، مأسورون بقيود الطبيعة.. ألا ترى أنه إذا لاحت لنا أعلام الجنة حقًّا كان ذلك داعيًا عظيمًا لنا لنحاسب أنفسنا أشد المحاسبة على ما نأتي ونذر في تعاملنا مع بعضنا..

وخذ لهذا مثالًا سَطَّرَه سيدٌ من أرباب التزكية، وأستاذٌ من أساتذة التربية الإيمانية:

فقد ذُكِرَ عن الصحابي الزاهد الراغب الراهب نجم من نجوم التربية النبوية، وثمرة الثقافة العمرية عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه سمع معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عن الجميع- يخطب في خلافته وهو يقول ما يمكن أن يقوله بشرٌ أعطاه الله الملك: من يطمع في هذا الأمر، ويرجوه، أو يمد له عنقه؟ أي: من يظن نفسه أهلًا للخلافة أكثر مني بعد موت عليٍّ رضي الله عنه.

عندها لم تصبر نفس ابن عمر ﷺ على ذلك.. قال: فما حدثت نفسي بالدنيا قبل يومئذٍ، وأراد ابن عمر ﷺ الردَّ عليه، وحكى ما دار بينه وبين نفسه من صراعٍ فقال: ذهبتُ أريد أن أقول له: يطمع فيه من ضربك وأباك على الإسلام حتى أدخلكما فيه، فذكرت الجنة ونعيمها، فأعرضت عنه، ولفظ البخاري أرشق من ذلك ففيه: «فَحَلَلْتُ حُبْوَتِي، وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ مَنْ قَاتَلَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَتَسْفِكُ الدَّمَ، وَيُحْمَلُ عَنِّي غَيْرُ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللهُ فِي الْجِنَانِ»[1]..

وهكذا أذهب ذكر الجنة الدخول في جدالٍ قد يورث الضغائن، ويفسد القلوب والبواطن.. ويبذر بذور الشقاق، وينذر بالخُلْف والافتراق.. حتى قال أحد السامعين لابن عمر ﷺ إعجابًا وتأثرًا: حُفِظْتَ وَعُصِمْتَ..

إنه العقل والمروءة والديانة.. والحلم والوقار والرزانة.. وبين يدي ذلك كلِّه رجاء ما عند الله ﷻ والدار الآخرة.. فإليها يطمح الطامحون.. وعلى نيلها والفوز بها يعوِّل المنجحون المفلحون..

فهل من مدَّكر؟ أيا راغبًا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر:

(١) البخاري (٤١٠٨)، وانظر: مجمع الزوائد ٤/ ٢٠٨، فتح الباري ٧/ ٤٠٤، وليس في القصة غضٌّ من شأن بعض الصحابة رضي الله عنهم، وإنما بيانٌ لما يحدث في النفوس البشرية.

سَـ ـارَ المجدُّونَ فِي الخَيْرَاتِ وَاجْتَهَدُوا ◆◆◆ يـــا سعد من فاز بالجنَّات والنِّعَـــمِ

صَفَـــتْ لأهْلِ التُّقَى أَوْقَاتُهُم سَـــعِدُوْا ◆◆◆ نَالُوا الهَنَا وَالمُنَـــى بالخَيْرِ والكَرَمِ

ضَيَّعْتُ عُمْرِي وَلا قَدَّمْـــتُ لِي عَمَلاً ◆◆◆ أَنْجُـــو بِهِ يَوْمَ هَوْلِ الخَـــوْفِ والظُّلَمِ

ظَهْـــرِي ثَقِيـــلٌ بِذَنْبِـــي آهِ وَاأَسَـــفِى ◆◆◆ يَـــوْمَ اللِّقَـــاءِ إِذْ الأَقْدَامُ فِـــي زَحَمِ

أَرْجُوكَ يَـــا ذَا الْـــعُلا كَرْبِـــي تُفَرِّجُهُ ◆◆◆ وَاشْـــفِ بِفَضلِكَ لِـــي بَلْوَايَ مَعَ سَـــقَمِي[1]

◆ إنه الملك الكبير ينتظرك في الجنة.. أفتُقَدِّمُ عليه انتصارك لنفسك، واستجابتك لداعي هواك؟

لقد كبُرت الدنيا في نفوسنا حتى طغت سخيمةُ قلوبنا علينا، فصرنا ننسى هناك في الجنة ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠]، ننسى ملكًا كبيرًا ينتظرنا.. ننساه أو نغفل عنه لرغبةٍ في إمضاء غلٍّ في الصدور، أو الاستجابة لداعي هوىً غَرور.. انظر إلى رجلين أحدهما ترك الدنيا وزينتها من أجل حجز مقعده في الجنة، والآخر يستجيب لداعي هواه فيعرض عن أعظم عرضٍ مغرٍ بتجارةٍ رابحةٍ في الأرض، فقد روى أنسٌ ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله! إن لفلان نخلة، وأنا أُقِيمُ حائطي بها فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا...

فقال له النبي ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ»، وأين نخلةٌ من نخلة؟! أين نخلةٌ في الدنيا من نخلةٍ في الجنة؟!

(١) مجموعة القصائد الزهديات ١/ ٥٦٢.

ألا يكفيه أن يحجز لنفسه مكانًا في الجنة؟ لكن نزغة شيطانٍ عرضتْ له ملكتْ عليه عقله حينها فأبى المعاوضة، ورفض أعظم عرضٍ يجد فيه أربح تجارةٍ.. أبى أن يستجيب لعرض النبي ﷺ.. في هذه الأثناء سمع أبو الدحداح رضي الله عنه بالنبأ، فجاء إلى الرجل فقال: «بعني نخلتك بحائطي» كان حائط أبي الدحداح -وهو البستان- يحتوي على ستمائة نخلة، فأعطى الرجل بستانه في مقابل أن يتنازل عن نخلةٍ واحدة، فوافق الرجل، فأيُّ تجارةٍ كاسدةٍ ارتضاها؟ وأيُّ غنيمةٍ رابحةٍ أباها؟ ثم انطلق الرابح المُوَفَّق أبو الدحداح رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بعد أن أبرم الصفقة فقال: يا رسول الله! إني قد ابتعت النخلة بحائطي، فاجعلها له -أي للرجل الذي طلب النخلة- فقد أعطيتكها، هكذا اشترى أبو الدحداح رضي الله عنه نخلةً واحدةً، وباع بستانه المُكَوَّن من ستمائة نخلةٍ لأجل أن يعطيها للنبي ﷺ في مقابل أن يضمن له النبي ﷺ النخلة التي وعد بها في الجنة، عند ذاك أعلن النبي ﷺ الجائزة العظيمة التي يستحقها هذا المسابق للخيرات التارك عَرَض الدنيا من أجل ابتغاء وجه ربِّه ﷻ، وتثبيتًا لنفسه.. فقال:

«كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»، قالها مرارًا بيانًا لفضيلة أبي الدحداح رضي الله عنه، وإشهارًا لأمر استحقاقه لوسام الشرف الأخروي الرفيع، فأتى أبو الدحداح رضي الله عنه امرأته فقال: «يا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ»، فشاركته زوجه في المسارعة إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، فقالت: رَبِحَ الْبَيْعُ[1]..

(١) أحمد (١٢٤٨١)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٩/ ٣٢٤: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ»،

التفكير بالجنة.. مانعٌ من ظاهر الإثم وباطنه:

◆ **أيا حبيباه:** أترَى من يُفكِّرُ باليوم الآخر والجنة ونعيمها والنار وجحيمها:

يفرغ قلبه ليتبعَ حقدًا.. أيفرغ قلبه ليسير وراء حسدٍ؟.. أيفرغ قلبه ليُنْبِت لحمه ولحم أولاده من نار بمالٍ حرامٍ؟.. أيفرغ قلبه ليلقي الكلمات على عواهنها[1]: يغتاب هذا، ويجرح هذا، ويأكل لحم هذا، ويعرقل معاملة ذاك، ويتتبع عورات المسلمين في دورهم، ويُزَكِّي نفسه في حين يأتي الفواحش القولية والفعلية ما ظهر منها وما بطن..؟!

إن الغفلة عن اليوم الآخر، وضعف اليقين به.. وعدم تصوُّرِ قربه، وضآلة الشعور به يؤدي إلى أن يصبح الناس وُحُوشًا في الدنيا حتى وإن ظهرت منهم صلاةٌ أو صيام.. ذلك أنهم قد ينسون.. فلا يتصورون أنه يترتب على كلمةٍ تخرج منهم أن تتخطفهم كلاليب جهنم.. نعم! لمجرد خروج الكلمة.. فـ«إن العبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يلقي لها بالًا ينزلُ بها في النار أَبْعَدَ ما بين المشرق والمغرب»[2].. اللهم إنا نعوذ بك منها..

وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٣٢).

(١) أي: قال الكلام من غير فكر أو تدبر، قال ابن الأثير: العَواهن أن تأخذ غير الطريق في السير أو الكلام. النهاية في غرب الحديث ٣/ ٣٢٧.

(٢) البخاري٥/ ٢٣٧٧ (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، واللفظ له.

وفي المقابل رُبَّ كلمةٍ طيبةٍ بقلبٍ صادقٍ مشفقٍ يقولها الرجل يرفعه الله ﷻ بها درجات.. اللهم اجعلني والقراء من أصحابها..

◆ **أيا حبيب بالجنة:** إن تذكُّرَ الموت والمستقبل القادم يعني أن تحاول صنعَ مستقبلِك، والاستعداد لغَدِكَ غير قاعدٍ ولا متواكل.. ولا يعني أن يُوَلِّد عقيدة الإحباط واليأس التي يدين بها من لا دين له عندما يتذكر الموت، وأنه نهايةٌ لكلِّ متاعٍ دنيوي.. لقد أدت هذه العقيدة بهؤلاء الغافلين إلى الانتحار، أو سلوك أفعال الخاسرين، أما أنت أيها البارُّ القانت فإن الاستعداد للموت وما بعده يعني الحركة الإيجابية في الحياة بالازدياد من الطاعات، والمسارعة في القربات، والقيام بالصالحات في التعامل مع نفسك ومع الخلق، رغبة في سلوك أرضى السبل لرب الأرض والسموات، فقد سئل النبي ﷺ من خَيْرُ النَّاسِ؟ فقال: «من طال عُمْرُه، وحَسُنَ عَمَلُهُ»(١).

أيها الحبيب: «مالي أَرَاكَ فِي الذُّنُوبِ تَعْجَلُ، وَإِذَا زُجِرْتَ عَنْهَا لا تَقْبَلُ، وَيْحَكَ انْتَبِهْ لِقُبْحِ مَا تَفْعَلُ؛ لأَنَّ الأَيَّامَ فِي الآجَالِ تَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِ المدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

سَتَرْحَلُ عَنْ دُنْيَاكَ فَقِيرًا، لا تَمْلِكُ مِمَّا جمعت نقيرًا، بلى قَدْ صِرْتَ بِالذُّنُوبِ عَقِيرًا، بَعْدَ أَنْ رَدَاكَ التَّلَفُ رِدَاءَ الرَّدَى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

(١) أحمد (١٧٦٨٠)، والترمذي (٢٣٢٩)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ»، وصحح إسناده محققو المسند

كَأَنَّكَ بِالْمَوْتِ قَدْ قَطَعَ وَبَتَّ، وَبَدَّدَ الشَّمْلَ الْمُجْتَمِعَ وَأَشَتَّ، وَأَثَّرَ فِيكَ النَّدَمُ حِينَئِذٍ وَفَتَّ، انْتَبِهْ لِنَفْسِكَ فَقَدْ أُشْمِتَ وَاللهِ الْعِدَا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

كَأَنَّكَ بِبِسَاطِ الْعُمْرِ قَدِ انْطَوَى، وَبِعُودِ الصِّحَّةِ قَدْ ذَوَى، وَبِسِلْكِ الإِمْهَالِ قَدْ قُطِعَ فَهَوَى، اسْمَعْ يَا مَنْ قَتَلَهُ الْهَوَى وَمَا وَدَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

تَاللهِ مَا تُقَالُ وَمَا تُعْذَرُ، فَإِنْ كُنْتَ عَاقِلًا فَانْتَبِهْ وَاحْذَرْ، كَمْ وَعَظَكَ أَخْذُ غَيْرِكَ وَكَمْ أَعْذَرَ، وَمَنْ أُنْذِرَ قَبْلَ مَجِيئِهِ فَمَا اعتدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

فَبَادِرْ نَفْسَكَ وَاحْذَرْ قَبْلَ الْفَوْتِ، وَأَصِخَّ لِلزَّوَاجِرِ فَقَدْ رَفَعَتِ الصَّوْتَ، وَتَنَبَّهْ فَطَالَ مَا قَدْ سَهَوْتَ، وَاعْلَمْ قَطْعًا وَيَقِينًا أَنَّ الْمَوْتَ لا يقبل الفِدا ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

انْهَضْ إِلَى التَّقْوَى بِقَرِيحَةٍ، وَابْكِ الذُّنُوبَ بِعَيْنٍ قَرِيحَةٍ، وَأَزْعِجْ لِلْجِدِّ أَعْضَاءَكَ الْمُسْتَرِيحَةَ، تَاللهِ لَئِنْ لَمْ تَقْبَلْ هَذِهِ النَّصِيحَةَ لَتَنْدَمَنَّ غَدًا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]. »[1].

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٩٣.

«يا ليت قومي يعلمون..».. ليتهم ينظرون:

لقد علا على قلوب بعضنا -معاشرَ المؤمنين- هذه الأيام كثيرٌ من الران، وساد البغي والإثم والعدوان، فتأخر النصر، وصار بأسنا فيما بيننا، ووهت الأمة باشتغالها ببعضها تحت مطارق سنن التعذيب، لمن أعرض عن أوامر السميع المجيب، ولا تكاد تجد سببًا حقيقيًّا مباشرًا لذلك كله كالغفلة والإعراض عن الآخرة..﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]..

هاهو ذا القرآن بين يديك.. لا تجد فيه توجيهًا من التوجيهات الربانية.. أو مَعْلَمًا من المعالم القانونية إلا مقترنًا بالتذكير باليوم الآخر، والإخبار بلقاء الله ﷻ..

◆ أيها الحبيب: تقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فتهاب لقاءه وحسابه، وتنزع عما كنتَ عزمت عليه من العصيان في الخلوات، والعدوان المستتر بِستار المصلحة أو حتى بِستار الدِّين على المخلوقات، لأنك تعلم أنك ملاقي الله ﷻ فيجازيك على مثقال الذر، من خيرٍ أو شر، ولكننا تُهْنَا في متاهاتٍ غريبة، وبَعُدْنا عن فقه القدوم على الله، ونسينا اليوم الآخر..﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وما عملت من سوءٍ ولو كان صغيرًا في نظر بعض الناس كالغيبة والنميمة والكلام في أعراض الناس، واختلاس شيءٍ من الأموال، وغلول مقادير من الحقوق، فضلًا عن الكبر وبطر الحق وغمط الناس، والغلِّ على الذين آمنوا، وتدمير معالم الدين

وحقائقه أحيانًا بجَرَّة قلمٍ، وذلك كلُّه ابتغاء عَرَضٍ زائل من الدنيا.. قد يكون مالًا لا يساوي جناح بعوضة، وقد تكون شهرةً زائفة، إنها الدنيا في قلوب الغافلين:

هِيَ المُشْتَهَى والمُنْتَهَى ومَعَ السُّهَى ◆◆◆ أمَانِيُّ مِنْهَا دُوْنَهُنَّ العَظَائِمُ

وَلَمْ تُلفِنا إِلَّا وفِيْنَا تَحَاسُدٌ ◆◆◆ عَلَيْهَا وإِلَّا فِي الصُّدُوْرِ سَخَائِمُ

ومن تذكر النعيم المقيم يوم غدٍ: أيخضع لها؟ كلَّا.. أيا قوم! هذا خطاب الله ﷻ لنا يفتح آفاق الطاعة، ويُحَقِّر الدنيا المطاعة..﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وفي مآسينا الداخلية ما تفيض منه الدموع..

ففاضَتْ دُمُوعِي عندَ ذاكَ ورُبَّما ◆◆◆ تَشَهَّرَ بالدَّمع السِّرارُ المُكَتَّمُ[1]

خاتمة الكتاب.. أيها الحبيب: لي ولك لا لغيرنا كان الخطاب:

◆ **أيا حبيباه:** تأتينا الآيات تلو الآيات فكأنَّ المخاطَب بها غيرنا من المخلوقات..

نذهب لنطلب من الناس أن يزكوا أنفسهم وننسى أن المطلوب من إخبارهم بذلك هو أن تزكو أنفسنا.. لا أن نغفل عنها لنَعِظَ غيرنا..

ننسى أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول:

«اللَّهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها.. أنت وليها ومولاها»[2]..

(١) العاقبة في ذكر الموت، ابن الخراط، ص: ٢١٣.

(٢) مسلم (٢٧٢٢).

ننسى أنه ﷺ نفسي لنفسه الفداء ووجهي لوجهه الوقاء ﷺ كان يدعو «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي..»(١)، ويكثر أن يقول: «وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»(٢).

إنه إعداد أنفسنا حقًّا لاستحقاق التكريم في اليوم الآخر، ولأن نُزفَّ إلى جنةٍ عرضها السَّمَوَات والأرض، فاذكر -أيها الحبيب- في مقام الأشواق الذي رأيناه وسمعناه موعظة المخبت المنيب أبي الدرداء رضي الله عنه.. توقظ قلوبنا النائمة، وتقرع أسماعنا الهائمة.. يقول: (أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث..)

أيا أبا الدرداء: فاقصص علينا قصصَ الحق: ما أضحكك؟ وما أبكاك.. علَّ الرحمة تنزل على أفئدتنا فنضحك لضحكك، ونعتبر ببكاك.. اقصص أبا الدرداء..

يتابع أبو الدرداء رضي الله عنه فيقول:

(أَضْحَكَنِي مُؤَمِّلُ دُنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ.. وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ.. وَضَاحِكٌ بِمِلْءِ فِيهِ، وَلَا يَدْرِي، أَرَضِيَ اللهَ أَمْ أَسْخَطَهُ؟)..

والذي شَوَّقَ المتقين إلى جناته.. إنها لتبكي يا أبا الدرداء أكثر مما تُضحك..

فما يبكيك أبا الدرداء؟

---

(١) أبو داود (٥٠٦٧)، الترمذي (٣٥٢٩)، وقال: حديث حسن غريب، وصحَّحه النووي في الأذكار (ص: ٧٨)، والوادعي في الصحيح المسند (١٣٣٣).

(٢) أحمد (١٩٩٧)، الترمذي (٣٥٥١)، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"، وصححه البغوي في شرح السنة (١٣٧٥).

يقول المخبت المنيب أبو الدرداء رضي الله عنه:

(وَأَبْكَانِي ثَلَاثٌ: فِرَاقُ الْأَحِبَّةِ مُحَمَّدٍ وَحِزْبِهِ.. وَهَوْلُ الْمَطْلَعِ عِنْدَ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ.. وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ يَوْمَ تَبْدُوَ السَّرِيرَةُ عَلَانِيَةً، ثُمَّ لَا أَدْرِي إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ)[1].

فما نقول أيا أيها الحبيب أبا الدرداء.. ما نقول؟

الله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢] كَمْ مِنْ ظَالِمٍ تَعَدَّى وَجَارَ، فَمَا رَاعَى الأَهْلَ وَلا الْجَارَ، بَيْنَا هُوَ يَعْقِدُ عُقَدَ الإِصْرَارِ، حَلَّ بِهِ الْمَوْتُ فَحَلَّ مِنْ حُلَّتِهِ الأزرار، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢].

مَا صَحِبَهُ سِوَى الْكَفَنِ إِلَى بَيْتِ الْبِلَى وَالْعَفَنِ، لَوْ رَأَيْتَهُ وَقَدْ حَلَّتْ بِهِ الْمِحَنُ، وَشِينَ ذَلِكَ الْوَجْهُ الْحَسَنُ، فَلا تَسْأَلْ كَيْفَ صار، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢].

سَالَ فِي اللَّحْدِ صَدِيدُهُ، وَبَلِيَ فِي الْقَبْرِ جَدِيدُهُ، وَهَجَرَهُ نَسِيبُهُ وَوَدِيدُهُ، وَتَفَرَّقَ حَشَمُهُ وَعَبِيدُهُ والأنصار، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢].

أَيْنَ مُجَالَسَةُ الْعَالِيَةِ، أَيْنَ عِيشَتُهُ الصَّافِيَةُ، أَيْنَ لَذَّاتُهُ الْحَالِيَةُ، كَمْ كَمْ تَسْفِي عَلَى قَبْرِهِ سَافِيَةٌ، ذَهَبَتِ الْعَيْنُ وَأُخْفِيَتِ الآثَارُ، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢].

(١) الزهد لابن المبارك، ص: ٨٤، المجالسة وجواهر العلم (٥٦٥)، وقال المحقق (مشهور بن حسن): إسناده ضعيف.

تَقَطَّعَتْ بِهِ جَمِيعُ الأَسْبَابِ، وَهَجَرَهُ الْقُرَنَاءُ وَالأَتْرَابُ، وَصَارَ فِرَاشُهُ الْجَنْدَلَ وَالتُّرَابَ، وَرُبَّمَا فُتِحَ لَهُ فِي اللَّحْدِ بَابُ النَّارِ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

خَلا وَاللهِ بِمَا كَانَ صَنَعَ، وَاحْتَوَشَهُ النَّدَمُ وَمَا نَفَعَ، وَتَمَنَّى الْخَلاصَ وَهَيْهَاتَ قَدْ وَقَعَ، وَخَلاهُ الْخَلِيلُ الْمُصَافِي وَانْقَطَعَ، وَاشْتَغَلَ الأَهْلُ بِمَا كَانَ جَمَعَ، وَتَمَلَّكَ الضِّدُّ الْمَالَ وَالدَّارَ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

نَادِمٌ بِلا شَكَّ وَلا خَفَا، بَاكٍ عَلَى مَا زَلَّ وَهَفَا، يَوَدُّ أَنَّ صَافِيَ اللَّذَّاتِ مَا صَفَا، وَعَلِمَ أَنَّهُ كَانَ يَبْنِي عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

قارنه عَمَلَهُ مِنْ سَاعَةِ الْحِينِ، فَهُوَ يَتَمَنَّى الْفِرَارَ وَهَيْهَاتَ أَيْنَ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين، فَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْوَحْدَةِ وَحْدَهُ وَالْعَمَلُ ثَانِيَ اثْنَيْنِ، وَلَكِنْ لا فِي الْغَارِ، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢][1].

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/ ٢٧٩.

كانت تلك -أيا حبيب الجنة- قصة رحلة الخلود

حيث رأيتَ فيها شابًّا مؤمنًا يزفُّ إلى جنة الرحيم الودود.. تحمل تفاصيلها أحداثًا مثيرة، وأخبارًا مشوقةً كثيرةً.. تشوِّق النائم لأن يستفيق، والمقتصد لأن يجتهد.. فقد استبانت الطريق.. ولاحت.. فهل أجدُ نفسي وأجدك -أي حبيباه- فيها من المتنافسين؟

نفسُ توبي قد دنا منكِ الخَطرْ ... وربيعُ العمرِ ولَّى لا وزرْ

غفلةٌ جاثمةٌ يا ويحها ... فعلى العصيانِ كم طابَ السَّهرْ

ما كأنَّ الموتَ يسعى نَحْونا ... أو كأنَّا قد نَجَونا مِنْ سَقَرْ

ومع التَّفريطِ نكْتال المُنى ... لكأنَّ القلبَ أقسى مِنْ حَجَرْ

أينْ مِنَّا خوفُ ساداتٍ لنا ... كأبي بكرٍ وكالنُّور عُمَرْ

أين صوتٌ لعَلِيٍّ باكيًا ... هيَّجَ الدَّهرَ فجلَّ المُعْتَبَرْ

(قِلَّةُ الزَّادِ ودَرْبٌ مُوحِشٌ ... ويحَ نفسي آهٍ من طُول السَّفَرْ)

قُمْ بجوفِ اللَّيلِ أَعْلِنْ توبةً ... واذرفِ الدَّمْعَ عَلَى خَدِّ السَّحَرْ

واشْحَذِ الهِمَّةَ مِنْ أخبارِ مَنْ ... عَرَفوا اللهَ فَجَدُّوا في السَّفَرْ

يخرجُ المؤمنُ مِنْ دُنْياه لَمْ ... يقضِ مِنْ حمدٍ على اللهِ الوَطَرْ[1]

(١) لحادينا على طريق الجنة: عبد الرحمن العديني.

اللَّهمَّ يا منقذ الغرقى.. يا منجي الهلكى.. يا دائم الإحسان.. يا حيُّ يا قيُّوم، يا ذا الجلال والإكرام.. يا منَّان أذقنا برد عفوِك.. يا رحمن أَنِلْنا من كرمك وجودك ما تَقَرُّ به عيوننا.. وزدنا من فضلك ورحمتك فوق ما ترجوه قلوبنا، وتطلبه مسائلنا.. نسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك نبينا محمَّدٍ ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك نبينا محمَّدٌ ﷺ.. يا أرحم الراحمين..

◆ **يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام:** كم من نعمةٍ أنعمتَ بها علينا قلَّ لك عندها شكرُنا.. وكم من بليةٍ ابتليتنا بها قلَّ لك عندها صبرُنا..

فيا مَنْ قلَّ عند نعمتك شكرُنا فلم يحرمنا.. ويا من قلَّ عند بليته صبرُنا فلم يخذلنا.. ويا من رآنا على المعاصي فلم يفضحنا..

يا ذا النَّعماء التي لا تنفد أبدًا.. ويا ذا الإحسان الذي لا ينقضي أبدًا.. صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه.. وارزقنا الفردوس الأعلى برحمتك يا أرحم الراحمين..

(وإلى الله -تعالى ذكره- جزيل الضَّراعة والمِنَّة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلَّله من تَزَيُّنٍ وتَصَنُّعٍ لغيره)[1] آمين.

(١) من خاتمة كتاب الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣١٢.

بِـاللهِ يَـا قَارِئًـا كُتُبِـي وَسَـامِعَهَا ... أَسْـبِلْ عَلَيْهَا رِدَاءَ الْحُكْمِ والْكَرَمِ

وَاسْـتُرْ بِلُطْفِكَ مَـا تَلْقَاهُ مِـنْ خَطَأٍ ... أَوْ أَصْلِحَنْـهُ تُثَـبْ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهمِ

فَكَـمْ جَـوادٍ كَبَـى والسَّـبْقُ عَادَتُهُ ... وَكَـمْ حُسَـامٍ نَبَـا أَوْ عَـادَ ذُو ثلْمِ

وَكُلُّنَـا يَـا أَخِـي خَطَّـاءُ ذُو زَلَـلٍ ... والْعُـذْرُ يَقْبَلُهُ ذُو الْفَضْلِ والشِّـيَمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، على الله ربنا توكلنا،

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الجنة ٧

المُلْك الكبير بعد الوصول المثير ٧

المشهد الأول ٨

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٠] ٨

نظرةٌ عامةٌ عليهم وهم في ملكهم.. أظننت أنك تستطيع التعبير عما ترى؟ ٨

الملائكة المكرمون يستأذنون عليك: ١١

أنت بشرٌ! بدأت تحاول إحصاء ملكك وسعة مملكتك.. أتستطيع؟ ١٤

(قوموا إلى [جنة عرضها السَّمَوَات والأرض]).. حداء نبوي لإلهاب النفوس: ١٥

مقعد الصدق ١٦

أتريد أن تعرف التفاوت بين المؤمنين في الدرجات؟ قم بجولةٍ لترى آفاق النعيم وعطاءات الملك الكريم: ١٧

درجاتٌ رفيعةٌ، بعضها فوق بعض.. هل تطمح لها؟ ١٨

كرر مشهد التفاضل في الدرجات فيما بين أهل الجنات العاليات.. ثم اهتف بلسان الرجاء: ٢٠

فئة المحبة الصادقة.. ارتقت مكانًا عليًّا يعجب الناظرين، ويدهش ساكني الجنان: ٢١

تقدم فهناك ما هو أعلى منه، وقابل هناك أعمدة الإسلام.. الراشدين الكرام: ٢٢

بالآيات ترتقي الدرجات: ٢٥

زيارةٌ خاصَّةٌ لأعظم الأحبة.. حبيبٌ طالما تمنيت رؤيته.. ولكنه من الأرفعين أعمالًا.. إنه من السابقين: ٢٥

صورةٌ سريعةٌ.. كيف يمكن لسمعك وبصرك التقاطها، وهي كالضوء سرعة: ٢٧

ألا تريد رؤية أعلى درجات الجنة.. تقدم حيث الجلال النبوي، والمقام المحمود المصطفوي: ٣١

أبشر! فقد شُرِّفت بالقرب من منزلته ﷺ.. أتدري ما السبب؟ ٣٣
المشهد الثاني: نزهة في رياض الجنان ٣٦
ترى ما النعيم الأعلى: الجمال والإبداع الخارجي، أم السكينة الداخلية؟ ٣٦
تذكر يا محب الحجاز ما كنت تراه في الحجاز وقارن: ٣٩
مجلس أنس فردوسي في ظلال الأفنان: ٤٥
مياه جارية في أخاديد وغير أخاديد: ٤٦
أيها المتقون: انظروا إلى أنهار الجنة الكبرى.. هل رأيتم منظرًا أشهى وأحلى؟ ٤٨
أخيرًا وصلت إلى منبع الأنهار.. إنه فردوس جنة العزيز الغفار: ٥٠
أيها الثابتون على الدين.. الزاهدون فيما يلعب به الناس من الناكصين: هذا هو الكوثر: ٥١
عاطر الذكرى مع كوثر المصطفى: ٥٣
لا تذهل عن الحقائق.. إنهم فريق الخير في هذه الحياة: ٥٤
رؤوف رحيم يقول لمن بدَّل وغيَّر: سحقًا.. سحقًا.. فلماذا؟ ٥٦
انظر هناك: هل لك في العيون الفياضة المزدهرة، والنوافير المرتفعة المتفجرة ؟ ٥٨
المشهد الثالث: إلى أبهى جمال وأحلى دلال ٦١
غُنْجٌ أخَّاذٌ، وقَدٌّ أهيفُ.. الحور ينتظرنك: ٦١
أي خَلْقٍ يأسر النظر.. ويدعو إلى حُبٍّ مستقر.. كأنه سِحرٌ مستمر: ٦٣
مجلسٌ من مجالس الحب مع الأزواج المطهرة: ٦٧
وقت التضاحك في المضجع، والتقلب في المخدع.. تراه كيف يكون؟ ٦٨
من أصحاب هذا التنعيم وأهل ذياك التكريم؟ ٧٠
صورة الحُسْن تبدت.. لكنها الآن منكَ: ٧١
عرفنا ما حباك الله ﷻ به من جمالٍ يُغطِّي الشمس.. فما حال ملابسك؟ ٧٢

كيف حليتك أولًا؟ أتستطيع الوصف؟ ٧٢
إنه منظرٌ تسيل له الأدمع المشتاقة، وتهفو له نفسٌ مكابدةٌ تواقة.. ..... ٧٤
هذه هي الأساور؟ فكيف ستكون الثياب؟ ٧٤
طيب هو مسكٌ فوَّاح.. وأريجٌ للأرواح: ٨١
اطمئن هذا جمال لا يشينه قذر ولا يشوبه وضر: ٨١
ألا من غناءٍ يزيد مجلس الأنس طربًا: ٨٢
التفاتة السِّحْر: ٨٣
ملاعبة ومداعبة على الأرائك تحت ظلال الأشجار: ٨٦
حين يسطع الثَّغر البسَّام، ويضيء الدنيا جمال الابتسام: ٨٧
السباق السباق علك تلحق ركب القوم: ٩٢
المشهد الرابع: أيها الصابرون ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ **٩٤**
أُبَّهة الطعام وتحف الهدايا تتناوب المجيء إلى الكرام: ٩٤
تمتع بأبهة الخدمة، وطيب المقام، ولذة الطعام: ٩٥
مطاعمُ ألوانٌ وأشكالٌ، وجمالٌ يتلوه جمالٌ ٩٦
أواني الطعام: أكواب فضة طائفة، وصحافٌ من ذهب دائرة ٩٨
ثمر الجنان.. وفيء الأفنان يتبعانك أنَّى دعوتهما.. فهما لك في كلِّ حالٍ كظلٍّ دان: ١٠٠
حبذا اللهو مع الأحباب.. ودوران كؤوس الشراب: ١٠١
مخرج الطعام.. نعيم إلى نعيم: ١٠٣
المشهد الخامس: كالجمال المنظور إليك الجمال المسموع **١٠٥**
من أصحاب هذا النعيم؟ ١٠٨
لا بد أنك اشتقت إلى شيء من الغناء والصوت الشجي، فاسمع ثم احكم: ١٠٩

ألا تشتهي الخروج للتبضع والترفه في سوق الجنة: ١١١
الحمد شعارهم، والتسبيح دثارهم: ١١٢
المشهد السادس: تنعَّم يا صاحب المتاب بلقاء أصدق الأصحاب **١١٥**
نداءٌ إلهيٌ للمتقين من الأصحاب والأخلاء والأحباب في يوم الحساب: ١١٥
مشهدٌ من مشاهد الصداقة الحقة الطاهرة: ١١٨
السُّرر المرفوعة المتحركة.. منظرٌ لا يُنسى: ١٢٠
الله!.. الله! إنها وجوهكم أيها الفائزون: ١٢٢
انظر حواليك: زينةٌ تحفُّ بكم من كلِّ حدبٍ وصوب.. فتشغلكم عن بعضكم لوقتٍ: ١٢٤
اجتماع اللذات.. شيء فوق أمانينا القاصرات، وأقل من كلماتنا المحدودات: ١٢٦
الولد اللؤلؤة: سيدي.. الشراب.. الشراب: ١٢٧
رُفعتْ الكلفة وحَلَّ الأنس.. ها أنت تنازع أحبابك الكؤوس المترعة في مزاح ودعة: ١٢٩
جلسة محادثة: تعلنون فيها أنكم أشد حبًّا لله: ١٣١
كنا مشفقين من عذابه وعقابه.. أن يتخطفنا الموت قبل أن نصل بالتوبة إلى بابه: ١٣٢
المشهد السابع: حاجة أهل النار إليك.. نعيمٌ عظيم وجاهك عند الله نعيمٌ أعظم **١٣٤**
شفاعتك لإخوانك: كرامةٌ جديدةٌ ومنزلةٌ عَلِيَّةٌ: ١٣٤
الشرف... يُشارك المنيب في وفد الله ﷻ إلى أهل النار..للشفاعة في بعضهم: ١٣٥
زيارة صديقٍ من أصحاب الجنة لصاحبه من أهل النار: ١٣٧
هل أنتم مطَّلعون.. لتروا كرامتكم وجزاء عناده؟ ١٤٠
هؤلاء أهل الجنة المباركون: ١٤٤
يا أهل الجنة أشرفوا على أهل النار، وذكروهم بما كانوا يستهزئون: ١٤٥
نداء أخير من أهل النار لكم يزيدكم غبطةً وحبورًا: ١٤٨

المشهد الثامن: الأمان التام.. خلود لا موت ولا قلق ولا خِصام ١٥٠

يا أهل الجنة الخلودَ.. الخلودَ: ١٥٠

يوم الخلود: يوم الفرحة لكم.. ويوم الحسرة لهم: ١٥١

المشهد التاسع: إليكم ختم الكرامة.. كبرى الجوائز وعنوان السعادة.. ..... ١٥٥

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ١٥٥

إليكم يا أيها الفائزون ما هو أكبر من الخلود.. وما أدراكم ما هو؟ ١٥٥

إنه يوم المزيد.. أعلن العجز عن وصف ذلك النعيم المجيد: ١٥٧

إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة.. والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة..... ١٥٩

أيا خاطب الجنة وحبيبها: هاهنا حالةٌ تعجز الكلمات عن تصويرها: ١٦٠

المشهد العاشر فانظر إلى آثار رحمة الله ﷻ بين عبدٍ أوبقته أعماله.. وأنقذته رحمة ربِّه فازدهرت آماله ١٦٤

اشهد آخر أهل الجنة دخولًا الجنة وانظر إلى آثار رحمة الله ﷻ:..... ١٦٤

المرحلة الأولى: الزحزحة عن النار فوز وأي فوز..... ١٦٤

المرحلة الثانية: طمع الضعيف، وكرم الكريم: ١٦٥

المرحلة الثالثة: تابع المشهد: نعيمٌ جاذبٌ.. وهو مجرد نعيمٍ خارج الجنة:..... ١٦٦

المرحلة الرابعة: إنه باب الجنة..إغراء لا يقاوم: ١٦٨

المرحلة الأخيرة: دخول الجنة: ١٦٩

أَسِلْ الدمع على موقفٍ عظيمٍ كهذا الموقف.. ..... ١٧٠

سيل الكرم ينهال: ١٧٠

تمنَّ.. تمنَّ.. هل نذكرك بالأمنيات؟..... ١٧١

ختام زفاف المؤمنين.. ..... ١٧٦

تجدد النعم، ودوام الحمد للمنان المتين..... ١٧٦

الحمد لله والثناء والمجد يبدأ به الكون وينتهي إليه: ١٧٦
خاتمة القصة **١٧٩**
فراقٌ مؤقت غير بعيد.. لنعيمٍ مجيدٍ.. إن شاء الله: ١٧٩
وفي هذه القصة للنساء سبقهن.. لهنَّ همٌ لا منتهى لكبارها.. وهمتهن أجلُّ من الدَّهرِ: ١٨٠
أيا حبيباه: فُتِحَتْ ميادين السباق.. فهل من مسابقٍ للذيذ العناق؟ ١٨١
فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه: ١٨٢
إنه الملك الكبير ينتظرك في الجنة.. أفتُقَدِّمُ عليه انتصارك لنفسك، واستجابتك لداعي هواك؟ ١٨٤
التفكير بالجنة.. مانعٌ من ظاهر الإثم وباطنه: ١٨٦
«يا ليت قومي يعلمون..».. ليتهم ينظرون: ١٨٩
خاتمة الكتاب.. أيها الحبيب: لي ولك لا لغيرنا كان الخطاب: ١٩٠
فهرس الموضوعات: ١٩٨

بصائر المعرفة القرآنية

٢٧

سلسلة فقه القدوم على الله

السلسبيل الموروث قصة رحلة الخلود

الكتاب الرابع

الجنة الملك الكبير بعد الوصول المثير

في عالَمٍ يَمُورُ بالأحداثِ والمُجْرَيات تِباعًا، ويتفنَّنُ الشَّيطانُ وقَبيلُهُ في عرضِ أباطيلِهم، ويُجْلِبون بِخَيلِهم ورَجلِهم للإيقاعِ في صفوفِ المؤمنين، والإيقاعِ بجُموعِ المُوَحِّدين في مهاوي الرَّدى وصحراء التِّيْهِ المعاصر، وفي سعيٍ حثيثٍ دائبٍ غيرِ ممنونٍ يقدِّمون بِضاعتَهم الفاسدةَ المفسدةَ على صُوَرٍ تختلبُ القلوبَ، وتسحرُ الألبابَ سواء بما تَخُطُّهُ أقلامُهم المسمومةُ، أو تَبُثُّهُ قنواتُ عُهْرِهِم مِنَ البرامجِ المَلْغُومة... في ظِلِ هذا الزَّخَمِ المَهْولِ للإنتاجِ الأدبيِّ والإعلاميِّ الإبليسيِّ الدَّجَّاليِّ، كان لا بُدَّ من مدافعة الحرفِ بالحرفِ والكلمةِ بالكلمةِ... مِنْ هنا جاءت فكرةُ هذا العملِ: (سلسلةُ رحلةِ الخُلُود) التي صدرت على هيئة مِنَ الكتابةِ فريدة في بابها، معجبة في سَرْديَّةٍ أحداثُها أخَّاذةٌ بتصويرِها وتَجْسيدِها للأحداثِ المستقبليَّةِ التي سيَشهدُها واقعًا شابٌّ أحبَّ اللهَ عز وجل بِكُلِّيَةِ قَلْبِهِ، فأحاطه اللهُ عز وجل بوافرِ عنايتِه، ولَاحَظَهُ بِلُطْفِ حنانِه في جميع محطَّاتِ حياتِه الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ.

(سلسلةُ رحلةِ الخُلُود) تصويرٌ بديعٌ لإرهاصاتِ الانتقالِ من هذه الدَّارِ إلى دارِ المآلِ والقرارِ، ابتداءً بالموتِ ومفارقةِ الرُّوحِ الجسدَ، ثُمَّ الحياةِ البَرزخيَّةِ، ثُمَّ ما يتلو ذلك من مشاهدِ اليومِ الآخِرِ، وقيامِ السَّاعة، ودخولِ الجَنَّةِ وما فيها مِنْ صُوَرِ النَّعيمِ المُقيمِ واللُّطفِ الكريمِ.